

اصداء جامع قرطبة على عمارة مصر الاسلامية

أ.د/ كمال عناني إسماعيل*

أهمية الجامع قرطبة:

حظى جامع قرطبة بشهرة عالمية بين الآثار الإسلامية، ونال خلال القرون الثلاثة الأولى من عمر دولة الإسلام المكانة الأولى من بين المنشآت التي أقيمت في عصر الدولة الأموية في الأندلس، فقد رصد أخباره المؤرخون العرب، وتغنى بأوصافه الشعراء والأدباء بل أن بعض المؤرخين والجغرافيين العرب خصصوا فصولاً كاملة عن وصفه وتاريخه^(١). الذي ينطق بتاريخ وعز ومجد دولة بنى أمية في الأندلس بأسرها، ولا يزال اسم هذا الجامع يتردد حتى الآن على السنة الأسبان، وما زالت صورته تزين المنتجات السياحية حتى أصبح يمثل باسمه وصورته فن العمارة الإسلامية في الأندلس، ومن هنا كان ولا يزال جامع قرطبة موضوعاً للعديد من الدراسات التاريخية والحضارية والأثرية .

* أستاذ الآثار والحضارة الإسلامية - بقسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

(١) عن أوصاف جامع قرطبة وتاريخه وأهميته راجع على سبيل المثال .
الإدريسى (الشريف محمد بن عبدالعزيز): وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق - نشر الفريد ديسيه لأمار مع الترجمة الفرنسية - الجزائر - ١٩٤٩
ولنفس المؤلف راجع صفة المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق - نشر المكتبة الثقافية الدينية ببورسعيد بدون تاريخ ص ٥٧٥ - ٥٧٩ . وكذلك ابن عذارى (أبو عبدالله محمد المراكشي) : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - نشر الاستاذان ليفي بروفنسال وج.س . كولان - الطبعة الثالثة - بيروت - دار صادر ١٩٨٣، ج ٢ ، ص ٢٢٩-٢٣١، ص ٢٣٣-٢٣٤، ص ٢٣٦-٢٣٨، ص ٢٤٠، ص ٢٤١، ص ٢٥٠ وراجع كذلك المقرئ (أحمد بن محمد) : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب - تحقيق إحسان عباس بيروت- ١٩٦٨ م، المجلد الأول - ص ٥١٩ - ٥٢٠، ص ٥٤٥ - ٥٥٦، ص ٥٨-٥٦٣.

وتتجلى القيمة الأثرية لهذا الجامع في أنه أكبر مسجد قائم في الإسلام وثالث المساجد الكبرى مساحة بعد مسجدى سامراء وأبى دلف اللذين اندثرا^(٢).

كما أنه أكثر المساجد أهمية معمارية وزخرفية حيث يضم في عناصره أصول الفن الأموى طوال قرنين ونصف من الزمان، وأول من شيد الجامع القائم حالياً هو عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)

(١٣٨-١٧٢هـ - ٧٥٦ - ٧٨٨م) الذى شرع فى تشييده عام ١٦٩ هـ / ٧٨٥م، وانتهى من بنائه فى عام ١٧٠هـ / ٧٨٦^(٣) وكان عدد بلاطانه تسع تمتد عمودية على جدار القبلة^(٤).

وبعد وفاة الأمير عبد الرحمن الداخل تعرض الجامع لثلاث زيادات رئيسية تخللها الكثير من أعمال الإصلاحات والتجديدات الثانوية فى العهود المختلفة لحكام بنى أميه وذلك على النحو التالى:

الزيادة الأولى (زيادة الأمير عبد الرحمن الأوسط):

بدأت هذه الزيادة فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢١٦هـ / ٢٣٨هـ - ٨٢٢هـ - ٨٥٢م حيث أضاف إلى بيت الصلاة بلاطتين جانبيتين واحدة فى الجهة الشرقية والأخرى فى الجهة الغربية فبلغت بلاطات بيت الصلاة أحد عشر بلاطه^(٥)، وبعد ذلك بنحو ست عشرة سنة (٢٣٤هـ / ٨٤٨م) تمت

(٢) أحمد فكرى - المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ، ج١، نشر دار المعارف - القاهرة ١٩٦٩، ص ٢٤٢ - ٢٤٤

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق - ج٢ ، ص ٢٢٩، حيث الإشارة (وكان شروع عبد الرحمن الداخل فى هدم الكنيسة وبناء الجامع سنة ١٦٩هـ وتم بناؤه وكملت بلاطاته واشتملت أسواره فى سنة ١٧٠هـ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم : فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس نشر مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية ١٩٨٥، ص ١٦٢.

(٥) ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف القرطبي) : كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس - قطعة خاصة بعهد الحكم المستنصر، نشرها الدكتور عبد الرحمن الحجى، ص ٢٤٣، حيث الإشارة لتلك الزيادة فيما نقله ابن حيان عن الرازى (وزاد الأمير بن الحكم فى المسجد الجامع بقرطبة أول الزائدين فيه من خلفاء بنى مروان - الزيادة الأولى، الظاهرة من قبلته للداخل إليه، البارزة من بين البنية الأولى التى ابتناها أبو جده عبد الرحمن بن معاوية الأمير الأول الداخل على الأندلس .. وقد كانت أبهاء المسجد الأقدم تسعه أبهاء زاد عليها عبد الرحمن بهوين من كل جانبيه، فكملها أحد عشر بهواً، كذلك راجع ابن عذارى : المصدر السابق ج٢ ص ٨٣ .

المرحلة الثانية من زيادة الأمير عبد الرحمن الأوسط وفيها هدم جدار القبلة^(٦).

وبعد هذه الزيادة شرع الأمير عبد الرحمن الأوسط فى زخرفة الجامع الجديد لكنه توفي قبل أن يتم أعمال التجديد والزخرفة بالجامع فأتمها أبناه الأمير محمد (٢٣٨هـ - ٢٧٣هـ / ٨٥٢-٨٨٦م) فى سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م، وأضاف إلى المسجد مقصورة بجوار المحراب سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤^(٧).

وفى عهد الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣هـ - ٢٧٥هـ / ٨٨٦-٨٨٨م) تم ترميم وتجديد زخارف المسجد واصلح سقائفه وادخل عليه بيت المال^(٨) ثم أقام الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ / ٨٨٨-٩١٢) ساباط أوصل به ما بين القصر من جهة الغرب ثم أمر (بستارة من آخر هذا الساباط إلى أن أوصلها بالمحراب، وفتح بابا كان يخرج منه إلى الصلاة وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بنى أمية) وفقا لرواية ابن عذارى^(٩) وفى عام ٣٤٠هـ / ٩٥١م أمر الخلفية عبد الرحمن الناصر ببناء مئذنة جديدة للمسجد^(١٠) حلت محل مئذنة الأمير هشام التى تصدعت^(١١).

الزيادة الثانية: (زيادة الخليفة الحكم المستنصر ٣٥٠-٣٦٦هـ).

أجريت هذه الزيادة على عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد ولاتيه بعام سنة ٣٥١هـ / ٩٦١م واستغرقت نحو أربع سنوات كاملة حتى عام ٣٥٥هـ / ٩٦٥م. وذلك بأن هدم جدار القبلة وزاد من مساحة بيت الصلاة طولا فيما بين جدار القبلة والصحن أى أن بيت الصلاة اتسع فى اتجاه

(٦) بلغ طول هذه الزيادة ٥٠ خمسون ذراعا وعرضها ١٥٠ مائة وخمسون ذراعا وعدد سواربها ٨٠ ثمانون سارية، ابن حيان : المصدر السابق، ص ٢٤٦، وكذلك راجع

ابن عذارى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٠

(٧) ابن عذارى : المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٥.

(٨) نفس المصدر ص ٩٨.

(٩) ابن عذارى: المصدر السابق ص ٢٣٠.

(١٠) نفس المصدر ص ٢٣٠.

(١١) نفس المصدر ص ٢٢٨، حيث الإشارة (وكان الناصر أمر ببناء الصومعة العظيمة فى سنة ٣٤٠هـ، وشرع فى بنائها وهى الشهيرة التى لا صومعة تقدمها، وكان الذى دعاه بنائها .. وجدت فى القديمة فهدمت إلى قواعدها وبنيت بصخر الحجارة المنقولة إليها على العجل، ولمزيد من التفاصيل عن هذه المئذنة راجع الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الافاق ج ٢، ص ٥٧٨، ٥٧٩، كذلك راجع المقرئ - المصدر السابق - المجلد الأول ص ٥٤٨

الجنوب بإضافة إعداد جديدة إلى صفوف الأعمدة التي تؤلف الأحد عشر بلاطاً التي كان عليها المسجد في زيادته الأولى على عهد عبد الرحمن الأوسط وجاءت هذه الزيادة من أحسن ما زيد في المسجد على حد تعبير ابن عذارى^(١٢).

- الزيادة الثالثة (زيادة المنصور محمد بن أبي عامر ٣٧١هـ - ٣٩٣هـ - ٩٨١م - ١٠٠٢م)

هي أكبر الزيادات على جامع قرطبة وآخرها ففي سنة ٣٧٧هـ - ٩٨٧م، شرع المنصور محمد بن أبي عامر الذي نسبت إليه الدولة فأصبحت تسمى بالعامرية (٣٧١هـ - ٣٩٣هـ - ٩٨١م - ١٠٠٢م) بدلاً من المروانية في توسيع بيت الصلاة لأول مرة من الجهة الشرقية^(١٣) فأضاف إليه ثمان بلاطات فأصبح يتألف من تسع عشرة بلاطة^(١٤).

تلك هي أهم الزيادات التي تعرض لها جامع قرطبة^(١٥)، والتي اقتضى موضوع البحث الإشارة إليها دون الدخول في تفاصيلها والخوض في مشكلاتها الأكاديمية التي يحتاج كل منها إلى بحث طويل في أصلها وتطورها. فعلى الرغم من كثرة الدراسات الحديثة التي تناولت جامع قرطبة بالبحث من جوانب عديدة تاريخية وأثرية^(١٦)، إلا أن هناك نقاط لا

(١٢) ابن حيان : المصدر السابق ص ٢٤٥، حيث الإشارة (ومد عبد الرحمن زيادته هذه طولاً من موقف حد المسجد إلى ناحية القبلة) وكذلك راجع ابن عذارى : المصدر السابق - ج ٢، ص ٢٣٤، حيث الإشارة (واحضر لها الأشياخ المهندسين فحدوا هذه الزيادة من قبلة المسجد إلى آخر الفضاء ماداً بالطول لأحد عشر بلاطاً، وكان طول هذه الزيادة من الشمال إلى الجنوب خمسة وتسعين ذراعاً وعرضها من الشرق إلى الغرب مثل عرض الجامع سواء).

(١٣) ابن عذارى : المصدر السابق - ج ٢، ص ٢٣٤ حيث الإشارة (فشرع المنصور في الزيادة الشرقية حيث يتمكن الزيادة لاتصال الجانب الغربي بقصر الخلافة فبدأ ابن أبي عامر هذه الزيادة على بلاطات تمتد من أول المسجد إلى آخره).

(١٤) المقرئ: المصدر السابق - المجلد الأول - ص ٥٤٧ حيث الإشارة (وكان عدد باطاته أحد عشر بلاطاً، عرض أوسطه ستة عشر ذراعاً وعرض كل واحد من اللذين يليانه غرباً واللذين يليانه شرقاً أربعة عشر ذراعاً وعرض كل واحد من الستة الباقية أحد عشر ذراعاً وزاد ابن أبي عامر فيه ثمانية عشر ذراعاً وعرض كل واحد عشرة أذرع) وكذلك راجع أحمد فكرى : المرجع السابق ص ٢٤٤ - ٢٤٧

(١٥) شكل ١

(١٦) السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة وتاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي . مؤسسة شباب الجامعة - إسكندرية ١٩٧٠م =

تزال بحاجة إلى مزيد من التحليل، ويأتي على رأس هذه النقاط . أثر جامع قرطبة على عمارة مصر الإسلامية والذي يعد سجلاً معمارياً لتاريخ العلاقات الحضارية بين مصر والأندلس فهذا الأثر يوضح مدى التغلغل الذي أصابته التأثيرات الأندلسية في عمارة مصر الإسلامية وإلى أي مدى أمكن لتلك التأثيرات أن تنصهر في بوتقه فنون العمارة المصرية لتصبح بمرور الزمن إحدى العناصر الأساسية للعمارة الإسلامية في مصر.

وقد ساعد على نقل التأثيرات الأندلسية إلى مصر عوامل عديدة سياسية واقتصادية وحضارية لا يتسع المجال لذكر تفاصيلها ويمكن القول بأن هذه التأثيرات قد بدأت تتوافد على مصر منذ أواخر القرن ٣هـ/٩م وبداية القرن ٤هـ/١٠م عند رحل إلى الإسكندرية عدد من ثوار ربض قرطبة الذين نفاصم الأمير الحكم بن هشام من الأندلس.

وفي عصر الدولة الطولونية المعاصرة للدولة الأموية في الأندلس أنتقل العديد من علماء الأندلس إلى مصر وسمح لهم أحمد بن طولون بالإقامة في جامع المعروف بجامع أحمد بن طولون بل وأجرى عليهم الأرزاق شهرياً وعندما تمكن الفاطميين من فتح مصر عام ٣٥٨هـ/٩٦٩م واستقروا بها أقاموا العديد من المنشآت التي تجلي فيها الأثر المغربي الأندلسي^(١٧).

وفي العصريين الأيوبي^(١٨) والمملوكي تلقت العمارة المصرية فيضا من التأثيرات المغربية الأندلسية نتيجة توافد أعداد هائلة من جموع الأندلسيين

=ص ٢٦٩ ومابعدا أما الدراسات الأجنبية فكثيرة منها دراسات لامبير : (تاريخ المسجد الجامع بقرطبة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين في حوليات معهد الدراسات الشرقية بجامعة الجزائر ج ٢، ١٩٣٦٠ بالفرنسية) والمسجد الجامع بقرطبة والفن البيزنطي، باريس ١٩٥١ (بالفرنسية)، ومارسيه : العمارة الإسلامية في المغرب والأندلس باريس ١٩٥٤ م بالفرنسية، وتوريس بلباس : المسجد الجامع بقرطبة وآثار مدينة الزهراء - مدريد ١٩٥٤ بالإسبانية، وسوف أشير إلى المزيد من تلك الدراسات في ثنايا البحث

(١٧) ابن جبير (محمد بن أحمد): رحله ابن جبير - بريوت ١٩٨١ - ص ٢٥ .

(١٨) لمزيد من التفاصيل عن العلاقات المغربية الأندلسية مع مصر راجع:

- سعد زغول عبد الحميد: العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور : مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية - مجلد (٦) ١٩٥٨ .

- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي - إسكندرية ١٩٦١ =

إلى مصر من العلماء وطلاب العلم وعرفاء البناء والتجار والسفراء على أثر تشعب العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية التي وصلت إلى قمة ازدهارها في عصر دولة المماليك.

ولما كانت العمارة أحد سجلات العلاقات بين الدول فإن جامع قرطبة الذي يمثل مدرسة فن العمارة الأندلسية يبرز بعضاً من التأثيرات التي مارسها فنون العمارة الأندلسية على عمارة مصر الإسلامية والتي من أهمها.

أولاً : فكرة تعدد القباب وأسلوب توزيعها على بلاطى المحراب حافظ بناء جامع قرطبة منذ الشروع فى تشييده على عهد عبد الرحمن الداخل فى سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م إلى أن اتخذ شكله النهائى عام ٣٧٧هـ / ٩٨٧م فى عهد المنصور بن ابى عامر على طراز المسجد ذى الصحن المركزى المكشوف التى تحيط به الأروقة الممتدة عمودية على جدار القبلة^(١٩). ولذا فقد ارتبطت وسائل التغطية فى هذا المسجد بنظام

=ولنفس المؤلف بالاشتراك مع أ.د. مختار العبادي راجع: تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس - إسكندرية ١٩٨٥

-محمد عبدالله عنان: العائق الدبلوماسية بين القاهرة والمماليك الأسبانية النصرانية فى العصر المملوكى (مقال ضمن الندوة الدولية لتاريخ القاهرة - ج٣ - دار الكتب - القاهرة ١٩٧١) .

-حسين مؤنس : سفارة بدرو ماريتير دى أنجلاريا سفير الملكين الكاثوليكين إلى السلطان الغورى.

-أحمد الطوخي : مصر والأندلس - ١٩٨٨ .

-سحر عبد العزيز سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وبعد سقوطها - المؤتمر العالمى الخامس - للدراسات الموريسكيه - ج٢ - تونس ١٩٩٣ .

-محمد عبد المنعم الجمل: معالم تاريخ مصر الإسلامية من الفتح حتى نهاية العصر المملوكى - دار المعرفة الجامعية - إسكندرية .

(١٩) يعرف هذا الطراز باسم الطراز النبوى أو الطراز العربى التقليدى المتمثل فى

المسجد النبوى لأول بالمدينة المنورة فى مرحلته الأولى زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين أو مرحلته بعد أن اكتمل فى أيام الأمويين وصار النموذج الذى اقتتدت به عمارة المساجد فى معظم الأقطار الإسلامية، لمزيد من التفاصيل راجع على سبيل المثال، فريد شافعى: العمارة العربية فى مصر فى عصر الولاة - المجلد الأول - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - ١٩٧٠م ص٦٥-٧٧، حسن باشا : اثر عمارة عثمان بن عفان فى المسجد الحرام فى تخطيط المساجد وفى العمارة الإسلامية (ضمن دراسات فى تاريخ الجزيرة العربية : الكتاب الثالث - الجزيرة العربية فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين) ج٢ الرياض م ص٢٣٩ ومابعدها، محمد حمزة إسماعيل الحداد - المجلد فى الآثار والحضارة الإسلامية - مكتبة زهراء الشرق - القاهرة ٢٠٠٤م

تخطيطه الذي لم يعرف الأواوين المقبية^(٢٠) حيث استخدمت أسقف خشبية

ص٤٩٨-٤٩٩، اما عن نظام اتجاه الأروقة أو البلاطات التي تسير عمودية على جدار القبلة فقد نقله بناه جامع قرطبة عن النظام التخطيطي للجامع الأقصى الذي أعاد الوليد بن عبد الملك بناءه في سنة ٧٨هـ/ ٧٠٦ م والذي كان يتألف من عشرة بلاطات عمودية على جدار القبلة وقيل أنه كان يتألف من خمس عشرة بلاطة . وهو الرقم الذي أورده الأستاذ لامبير وأخذ به الدكتور السيد عبد العزيز سالم مؤكدا أنه كان يمثل العدد الفعلي لبلاطات الجامع في عهد الخليفة المهدي العباسي ، عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ج ١ ص ٣٥٩

L.Ambert (Elie) : Les Mosques de type Andalous en Espagne et en Afrique du Nord , Al Andalous Vol, XIV 1944 p.277

أحمد فكري: المرجع السابق ، ص ٢١٣، وقد صار تخطط جامع قرطبة المتأثر بالجامع الأقصى والقائم على نظام الأروقة العمودية على جدار القبلة هو النموذج الذي نسج على منواله في كل مساجد الأندلس تقريبا بما في ذلك ظاهرة اتساع وارتفاع البلاط الأوسط النابعة من أصول إسلامية شرقية حيث صممت على أساسه عدد من المساجد المشرقية مثل جامع دمشق وحلب والرصافة والأقصى وسامراء والحاكم بأمر الله، ويبدو أن هذا الطابع قد نقل إلى بلاد الأندلس من المغرب حيث يرجع أقدم أمثاله الباقية في المغرب إلى زيادة بشر بن صفوان بمسجد القيروان ١٠٥/٧٢٣م

Torres Balbas: Arte Hispano Musulmana hasta la Caide de Califato del cordoba en Historia de Espana ,. T.v. Madrid 1957, p. 351

Ewert (Christian) : Die mochee am Bab Al - Mardum in Toledo Eime Kaoppie Der Moschee Vou cordoba Heidbery 1944, p.352

أحمد فكري : المرجع السابق، ص ٢٠٧، السيد عبدالعزيز سالم : ج١، ص ٣٦٠، ٣٦١

(٢٠) ربما ساد هذا الأسلوب في بناء المساجد في العصور الإسلامية الأولى عموما ومساجد الأندلس خصوصا نتيجة للأسباب التالية : أ - أن الفكرة في بناء تلك العمائر كان يقوم على أعداد بيوت للصلاة فسيحة وأروقة طويلة مفتوحة على صحن أو أيهاء واسعة ومكشوفة وهو ما لا تحققه الأواوين المقبية، وبالتالي كان لزاما لتلك البيوت والأروقة وأكثر مناسبا أن تغطي بأسقف خشبية مسطحة أو مسنمة.

ب- وفرة الأخشاب في بلاد الأندلس وسهولة الحصول عليه

ج- كان لبرودة المناخ وغازارة الأمطار والتلوج ببلاد الأندلس أثرهما الواضح على مكونات أسقف العمائر الأندلسية التي اتخذت في معظمها شكل مسنم مثن الشكل تكسوه قراميد صفت في شكل نصف دائري بحيث تسمح بتصريف مياه الأمطار. ربما يفسر ذلك وصف ابن الخطيب لمدينة فنيانة بقوله (كان بردها كثير وودقها أي مطرها كثير) ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس

(مجموعة رسائل) نشر وتحقيق أحمد مختار العباي مؤسسة شباب الجامعة - إسكندرية ١٩٨٣ ص ٨٩

مسطحة تعلوها أسطح منشورية أو مسنمة على الطريقة الشامية^(٢١) في تسقيف أروقة المسجد منذ تشييده في عهد عبد الرحمن الداخل وحتى عهد عبد الرحمن الناصر الذي أصبحت الأسقف في عهده مسطحة وليست منشورية أو مسنمة^(٢٢) ثم تابع الحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر نفس الطريقة في تغطية الجامع بسقف يتألف من جوائز خشبية تحصد بينها سماوات غير أن أسقف زيادة الحكم المستنصر تميزت دون غيرها من أسقف الزيادات التي تعرض لها الجامع باستئمالها على أربع قباب موزعه على النحو التالي، قبة عند مدخل البلاط الذي يتوسط بلاطات الزيادة

(٢١) من الجدير بالذكر أن هذه الطريقة وفدت من المشرق الإسلامي إذا كانت معروفة وشائعة في عدة مساجد من العصر الأموي أبرزها جامع دمشق. كما انتشرت في آسيا الصغرى وإيران. وهذا الشكل المسنم للأسقف يرجع إلى أصول قديمة حيث ظهر في العصر الإغريقي وفي العصرين الروماني والمسيحي المبكر في إيطاليا وفي الأقطار الشرقية. وقد زاد الإقبال على هذا الأسلوب في التغطية وظل سائداً في عمائر الأندلس منذ ظهوره لأول مرة في جامع قرطبة وحتى نهاية عصر بنى نصر. رغم تحول المسجد إلى كنيسة في عام ١٢٣٦م إلا أن هذا التحول لم يمس جوهر السقف حتى القرن الثامن عشر الميلادي (١٧١٣-١٧٢٣م) حين تم إزالته وأقيم مكانه قبوات حديثة. ولحسن الحظ تم الاحتفاظ بعدد كبير من أجزاء هذا السقف بفضل الجهود التي بذلها علماء الآثار الأسبان وعلى رأسهم الأستاذ فيليث هرنانديث. وبعض هذه الأجزاء لا يزال محفوظاً في متحف الجامع وفي المجنبتين الشرقية والغربية للجامع.

Jimenez (Felix Hernandez) : La techumbre de la Gran Mezquita de cordoba en Archivo Espanol de Arte arqueologia , t, xii, 1928 , pp. 90-92 , p.22

السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٣٨١ - ٣٨٢

(٢٢) تتألف الأسقف الأندلسية من عروق خشبية طويلة يطلق عليها في المصطلحات العربية الأندلسية اسم جوائز Jacena تقطعها لوحات أو حشوات خشبية تعرف باسم سماوات مرتبة في شكل صفوف عرضية مثبتة في جوانب الجوائز. وقد تم الاستدلال على هذين المصطلحين (جوائز وسماوات) من وصف الأدريسى لسقف جامع قرطبة بقوله (وسقفه كله من سماوات خشب مسمرة في جوائز سقفه. وبين الجائزة والجائزة غلظ جائزة والسماوات التي ذكرناها هي كلها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسنمة المسدسة والمؤربي. وهي صنع الفص وصنع الدوائر والمدهن لا يشبه بعضها بعضاً بل كل سماء منها مكنت بما فيه من صنائع قد احكم = ترتيبها. الأدريسى (الشريف محمد بن عبد العزيز): وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق: نشر الفريد ديسيه لامار مع الترجمة الفرنسية - الجزائر ١٩٤٩ م، ص ٤، السيد عبد العزيز سالم: بعض المصطلحات العربية للعمارة الإسلامية في الأندلس:

نشر مجلة المعهد المصري - مدريد - ١٩٥٧م - ص ٢٤

الحكمية تعرف بقبة الضوء **cupula de Lucenario** أو القبة المخزومة الكبرى أو قبة مصلى فيلافيثوسا^(٢٣)، وأخرى عند نهايته أمام المحراب^(٢٤)، يكتنفها قبتان جانبيتان^(٢٥)، والواقع أن توزيع قباب الحكم المستنصر على هذا النحو يعد نقطة تحول كبيرة في تاريخ عمارة المساجد المشرقية والمغربية بوجه عام ومساجد الأندلس بوجه خاص إذ استطاع مهندس الحكم من جهة التوصل إلى ابتكار أصيل في تاريخ العمارة الأندلسية. وهو تعدد القباب على بلاط المحراب واسكوبه ومن جهة أخرى التأكيد على أهمية هذا البلاط الذي يضم المحراب أهم عناصر المسجد، وفيه تتلى آيات القرآن الكريم والمقصورة التي يتخذها الخليفة للصلاة والمنبر الذي يقف عليه الإمام للخطبة^(٢٦)، وهذا ما لا نجده في كل الزيادات التي تعرض لها المسجد منذ الشروع في تشييده وحتى عهد الحكم المستنصر. بل في كل مساجد الإسلام شرقا وغربا بحيث يمكن القول بأن قباب زيادة الحكم تمثل اللبنة الأولى في فن بناء القباب التي تعرض لها المسجد منذ الشروع في تشييده وحتى عهد الحكم المستنصر. بل في كل مساجد الإسلام شرقا وغربا بحيث يمكن القول بأن قباب زيادة الحكم تمثل اللبنة الأولى في فن بناء القباب التي تعتمد على وجود اربع قباب موزعة على بلاط المحراب واسكوبه، وكان لهذا الأسلوب المتطور الذي نشهده لأول مرة في جامع اسلامي أثره الواضح في توزيع وبناء قباب المساجد في بلاد المغرب والأندلس خلال عصرى المرابطين والموحدين التي أتخذت من تسلسل قباب الحكم على بلاط المحراب الموازي لجدار القبلة والعمودى عليه نموذجا احتذائه تلك المساجد مثل جامع تلمسان بالجزائر من عصر المرابطين (٥٣٠هـ/١١٣٦م)^(٢٧)، على عهد على بن يوسف بن

(٢٣) لوحة (١)

(٢٤) لوحة (٢)

(٢٥) جوميث مورينو : الفن الإسلامى فى إسبانيا. ترجمة د. لطفى عبد البديع، د. السيد عبد العزيز سالم ومراجعة د. جمال محمد محرز - نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٨م، ص ١٢٩، ص ١٣١، ص ١٤١، ص ١٤٥-١٤٦، السيد عبدالعزیز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، ج ١ ص ٣٨٤ - ٣٨٥
(٢٦) يتميز الجامع بوجود قبتين واحدة عند مدخل البلاط الأوسط والثانية عند نهايته أمام المحراب

(27) Marcais (G) : L'Architecture Musulmane d'Occident , Paris 1954, p.192

تاشقين^(٢٨)، وجامع الكتبية بمراكش ٥٤١هـ/١٤٦م^(٢٩)، وأن اقتصر توزيع قبابه البالغ عددها خمسة على بلاط المحراب الموازي لجدار القبلة وفي مسجد تنمال^(٣٠) أو تنمل (٥٤٣هـ/١٤٨م) وهما من بناء عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين. وفي جامع القصبية بمراكش، الذي تتفق قبابه عدداً وتوزيعاً مع قباب الحكم وقد تم بناؤه عام (٥٩١هـ/١١٩٦م) على عهد يعقوب المنصور بن يوسف الموحدى، وأخيراً مسجد الموحدين بأشبيلية الذي شرع فى بنائه يعقوب بن يوسف عبد المؤمن الملقب بالمنصور فى عام (٥٦٧هـ/١١٧١م)^(٣١)، وبما أن فكرة تعدد القباب وتسلسلها على بلاط المحراب الموازي لجدار القبلة والعمودى عليه صارت طابعاً مميزاً لمعظم المساجد فى الغرب الإسلامى، فينبغى الإشارة هنا إلى مصدر اشتقاق هذه الفكرة والتى طبقت قبل زيادة الحكم بنحو قرن من الزمان، وأن اختلفت القباب عدداً فى المسجد الجامع بالقيروان، أقيم قببان أحدهما أمام المحراب شيدها زيادة الله سنة (٢٢١هـ - ٨٣٦م) والأخرى على مدخل البلاط الأوسط من جهة الصحن

(٢٨) شكل (٥) اقتصر توزيع قبابه البالغ عددها خمسة على بلاطة المحراب الموازية لجدار القبلة .

(٢٩) تنمال كلمة بربرية من كلمتين "تين" ومعناها ذات وأيمى ومعناها الحواجز التى توضع فى سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقى (محمد عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية فى المغرب والأندلس، دار صار بيروت - بدون صالح ص ٥١ هامش (٢) .

(٣٠) تبقى إطلال قباب ثلاثة موزعة على البلاط الموازي لجدار القبلة

Marcais (G): op -cit, p.201

(٣١) ابن صاحب الصلاة (عبد الملك) : المن بالإمامة تحقيق عبد الهادى التازى، دار الغرب الإسلامى، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٧ ص ٣٨٢ حيث الإشارة إلى أن ابتداء البناء كان فى شهر رمضان من السنة المذكورة ولمزيد من التفاصيل عن هذه المساجد راجع على سبيل المثال توريس بلباس: الفن المرابطى والموحدى، ترجمة سيد غازى - درا المعارف بمصر ١٩٧١، ص ١٥-٢٣ ، السيد عيد العزيز سالم، المغرب الكبير ، الجزء الثانى، طبعة الإسكندرية، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م، ص ٦٦، ٦٧٦، ٧٤٢، ٧٦٨، ٧٧٢، سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون فى دولة الإسلام منشأة المعارف إسكندرية ١٩٨٦، ص ٤٩٧ - ٥٠١، محمد محمد مرسى الكحلوى : مساجد المغرب والأندلس فى عصر الموحدين ، القاهرة بدون تاريخ ص ١٣٥-١٤٥، ص ٢١١-٢٤٩، ٣٣٨ - ٣٤٤، وكذلك ص ٣٥٦ حيث الإشارة إلى أن فكرة تعدد القباب ترجع إلى أصول مشرقية أقدمها الجامع الكبير بمدينة حماة الذى يرجع إلى عام ١٥٧هـ/٧٧٣م .

شيدها إبراهيم بن أحمد بن أغلب سنة ٢٦١هـ - ٨٧٤م الذي اتخذ الجامع شكله النهائي في عهده، ومن مسجد القيروان انتقل هذا الأسلوب الذي يعتمد على بناء قبتين على البلاط الأوسط ببيت الصلاة^(٣٢) إلى مسجد الزيتونة بتونس (١١٤هـ/٧٣٢م)^(٣٣) حيث أقيم أمام المحراب سنة (٢٥٠هـ/٨٦٤م) قبة نظيره لقبة محراب القيروان، وفي سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١م توج مسجد الزيتونة بقبة ثانية على مدخل البلاط الأوسط من جهة الصحن تعرف بقبة الجهو^(٣٤)، ومعنى ذلك أن قباب القيروان كانت النموذج البارز الذي أتبع في بناء وتوزيع قباب المساجد في بلاد المغرب^(٣٥).

والواقع أن ذكرى هذا الأسلوب ظلت حية بعد ذلك بنحو قرن من الزمان فقلدها مهندس الحكم المستنصر في زيادته بجامع قرطبة عام ٣٥٤هـ/٩٦٥م تقليدا تاما حتى أن المرحوم الدكتور السيد عبد العزيز سالم رجح بأنه يكون من بين مهندسي الحكم من كان تونسيا^(٣٦)، استنادا على نص أورده ابن عذاري جاء فيه (أنه تدعى إلى هذه البنية - أي زيادة الحكم - كل صانع حاذق من أقطار الأرض)^(٣٧).

وفي ضوء ما تقدم يتضح أن هذا الأسلوب في توزيع القباب على النحو الذي فصلناه قد ظهر أول ما ظهر في بلاد المغرب بجامعي القيروان والزيتونة، ثم في بلاد الأندلس بزيادة الحكم المستنصر وأن اختلفت القباب عددا ونظاما وزخرفه، ويتمثل هذا الاختلاف في زيادة عدد قباب الحكم التي بلغت أربعة في حين اقتصر عددها بجامعي القيروان والزيتونة على قبتين فقط مما يعطى لمهندس الحكم قصب السبق في تطوير الفكرة التي اشتقت من نموذج بسيط الشكل كان قائما في جامعي القيروان والزيتونة ثم تطورت الفكرة التي اشتقت من نموذج بسيط الشكل كان قائما في جامعي القيروان والزيتونة بحيث اختلف عنهما من حيث الخصائص والمميزات

(32) Marcais (G): Op - cit, p.201

(٣٣) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ جامع الزيتونة ومراحل تكوينه منذ نشأته حتى آخر زيادة تعرض لها في عام ٧١٦هـ/١٣١٦م، راجع أحمد فكري: مسجد الزيتونة الجامع في تونس - المجلة التاريخية المصرية - المجلد الرابع العدد الأول - مايو ١٩٥١ م : ص ٦٥-٦٧

(٣٤) أحمد فكري: المرجع السابق، ص ٧٧، وكذلك راجع شكل ١٠

(٣٥) أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان - القاهرة - ١٩٣٢ م، ص ٩٤

(٣٦) السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ج ١ ص ٣٦٠

(٣٧) ابن عذاري: المصدر السابق ج ٢ ص ٢٣٨

المعمارية والزخرفية، والتي من أبرزها أشكال الضلوع التي انفصلت عن غطاء القبة في جامع قرطبة^(٣٨)، وإذا انتقلنا إلى المشرق الإسلامي نجد أن الفكرة نفسها قد طبقت في العصر الفاطمي. وبصفة خاصة في الجامع الأزهر (٣٥٩ - ٣٦١هـ / ٩٦٩ - ٩٧١م) الذي شيد بعد زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبة بنحو خمس سنوات بل أن بناء جامع الأزهر قلدوا أسلوب توزيع قباب قرطبة بعد إضافة الحافظ لدين الله (٥٤٤هـ / ١١٤٩م) القبة المعروفة بقبة البهو عند بداية الرواق الأوسط العمودي من جهة الصحن^(٣٩)، وبذلك أصبح عدد قباب الجامع أربعة^(٤٠) حيث كان المسجد في مرحلة إنشائه الأولى يشتمل على رواق أوسط عمودي على جدار القبلة بنهايته قبة أمام المحراب وبطرفي الرواق مما يلي جدار القبلة قبتين واحدة في الطرف الشمالي وثالثة في الطرف الجنوبي^(٤١)، كما نشهد نفس هذه الفكرة في جامع الحاكم بأمر الله (٣٨٠ - ٤٠٣هـ - ٩٩٠ - ١٠١٣م) وان اختلفت القباب عددا حيث يعلو بلاطه المحراب الأولى بعد جدار القبلة ثلاث قباب اثنتان ركنيتان بواقع واحدة بكل طرف، وقبة تتوج أسطوان المحراب وبذلك تكون فكرة تسلسل القباب على بلاطة المحراب^(٤٢) قد انتقلت من الأندلس ممثلة في قباب زيادة الحكم بجامع قرطبة إلى مصر الفاطمية، واعتقد أن الفكرة وأن كانت قد ظهرت بادئ ذي بدء في بلاد المغرب وبخاصة في جامعي القيروان والزيتونة غير أنها انتقلت بشكلها المتطور المعتمد على أربع قباب بدلا من قبتين أو ثلاث قباب من قرطبة إلى مصر الفاطمية وظهرت لأول مرة في الجامع الأزهر بعد زيادة الحافظ لدين الله.

(٣٨) Lambert (Elie): Les coupoles des Grandes Mosques de Tunisie et de L'Espagne au 1^{er} et 10^{es} Siecles Hesperis , T, Xxii, Fasc,2, 1936 p.215

(٣٩) اقتبس نظام البلاط أو الرواق القاطع المعروف بالمجاز القاطع فيما اقتبس من أنظمة وعناصر أخرى انتقلت من بلاد المغرب إلى مصر في عصر الدولة الفاطمية حيث ظهر هنا لأول مرة في مصر الإسلامية في حين ترجع أقدم أمثاله في المغرب إلى زيادة بشر بن صفوان بمسجد القيروان ١٠٥هـ / ٧٢٣م وفيه تتأكد صفة البلاط القاطع الأكثر اتساعا من باقي البلاطات

Marcais (G) : Manuel d'art Muslman , Paris 1926 , t.I . p.57

(٤٠) لوحة (٥).

(٤١) أحمد عبد الرزاق أحمد : العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي - دار القاهرة للكتاب ٢٠٠٢م، ص ١٤٦، محمد حمزة : المجلد ص ٥٠٤

(٤٢) لوحة (٦).

ثانيا : ظاهرة تعدد المحاريب :

بدأ الحكم المستنصر زيادته بجامع قرطبة عام ٣٥١هـ/٩٦٢ م بهدم جدار القبلة القديم بأكمله واحتفظ فقط بأعمدة المحراب القديم التي نقلها إلى مكان المحراب الجديد وفي مكان الجدار المتهدم أقام أحد عشر عقداً تقوم على دعائم ثم مد صفوف العقود جنوباً نحو ٤٥ م^(٤٣)، فأتسع بيت الصلاة وأصبح الجامع بعد زيادة الحكم يؤلف مستطيلاً طوله من الشمال إلى الجنوب نحو ١٦٥ م وعرضه من الشرق إلى الغرب نحو ١٢٥ م^(٤٤).

وما يهمننا هو المحراب الجديد الذي حل محل المحراب القديم في جدار القبلة الجديد عند نهاية الفضاء القبلي للجامع حيث تتحدر أرضية الجامع نحو نهر الوادي الكبير. فهذا المحراب الذي وجه إليه الحكم المستنصر عناية خاصة يعد عملاً فريداً في العمارة الإسلامية، وقطعة فنية عز أن نجدتها في كل المساجد^(٤٥)، إذ يؤلف ابتكاراً جديداً يضاف إلى جملة الابتكارات التي أضيفت إلى عناصر البنيان الأولى للجامع منذ تشييده حتى زيادة الحكم ويتجلى ذلك في تصميمه على شكل مثنى^(٤٦) منتظم الأضلاع من الداخل مفرع في كتله ضخمة من البناء تبرز عن سمت جدار القبلة من الخارج فتبدو وكأنها دعامة مستطيلة الشكل، ومن الداخل يبلغ عمق تجويفه نحو ٤ م واتساع فتحته من الشرق إلى الغرب حوالي ٣½ م^(٤٧) ومتوسط ارتفاعه حتى رأسه حوالي ٧ م.

وهكذا نلاحظ أن مهندس هذا المحراب لم يتبع في تخطيطه أصولاً سابقة فهو من الظواهر المعمارية النادرة حيث أن تخطيطه المثنى قلما نجده في تخطيط المحاريب في مساجد المشرق والمغرب الإسلامي بل أقدم نماذج هذا التخطيط يتمثل بما اعلم في تاريخ العمارة الإسلامية في محراب الحكم الذي أثر على نموذجين فقط من نماذج محاريب العمارة الدينية الأندلسية الأولى نشهده في محراب جامع المرية الذي يرجع إلى أو آخر القرن

(٤٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج٣ ص ٢٣٤

(٤٤) المقرئ : المصدر السابق، ج١، ص ٥٥٠

(45) Grube (E.J.) : The world of Islam , London 1967, p.27

(٤٦) لفت هذا التصميم المثير انتباه الإدريسي في وصفه لمحراب الجامع بقوله (وهو مثنى البنيان من داخله ومكسوة جوانبه بثمانية ألواح من الرخام) الإدريسي: المصدر السابق ، نشر الفريد ديسية لمار، ص ٨

(٤٧) المقرئ : المصدر السابق ، ج١، ص ٥٥١، السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ج ١ ص ٤٠٠

٤هـ/١٠م أي عهد الحكم المستنصر^(٤٨)، والمثال الثاني نجده في محراب جامع فنيانه الذي يرجع إلى عصر الموحدين وخارج الأندلس نجد أن الفكرة قد طبقت في محراب جامع القصبة بمراكش^(٤٩).

أبواب محراب جامع قرطبة وأثرها على فكرة تعدد المحاريب في العمارة الفاطمية بمصر :

لاشك أن المحارب بأشكالها المختلفة تمثل أحد عناصر بناء الجامع الهامة. وقد زاد من أهمية وقيمة تصميم محراب الحكم أنه قد أقيم على جانبيه يميناً ويساراً بابين مفتوحين (أي حقيقيين وليس وهميين)^(٥٠)، معقودين بعقدين جانبيين متجاوزين على شكل حدوة الفرس يكتنفان عقد المدخل إلى المحراب المتجاوز أيضاً لنصف الدائرة على شكل حدوة الفرس، فظهر البابين الجانبيين المعقودين وكأنهما محرابين^(٥١). وهذه الفكرة انتقلت من محراب الحكم المنتصر إلى العمارة الفاطمية حيث اتخذت تلك الفكرة نموذجاً لبعض محاريب العصر الفاطمي والتي نجد فيها جدار القبلة مزود بثلاث محاريب وأقدم مثل معروف لتعدد المحاريب بجدار القبلة جاء بعد محراب الحكم بنحو ست وسبعين سنة. وذلك في مسجد دير سانت كاترين

(٤٨) Torres Balbas : La Mazquita Mayor de Almeriam Al Aandalus , v, Xvill 1953 , p.429

كمال عناني إسماعيل: الآثار المعمارية الباقية من مسجد فنيابة بحث ضمن منشورات اتحاد المؤرخين العرب - نوفمبر ١٩٩٧ ص ٤٤٠ .

(٤٩) Sanchez Sedano (M del Pilar) inventrio de Archuitecture a musulmana en la provencia de Almeria, Boletin del instituto de Estudios Almerienses (N.5 Almeria, 1985, p.182

(٥٠) محمد الكحلوي : المرجع السابق، ص ٢٢٥

(٥١) لوحة (٧) إلى جانب المحراب المجوف عرف المسجد المحراب المسطح الذي يكون أشبه بالباب الوهمي في جدار القبلة والذي استمر في صورة المحراب الجصي في عمارة العصر العباسي بقي منها عدد من النماذج في جامع أحمد بن طولون بعضها من العصر الفاطمي والبعض الآخر من العصر المملوكي (سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٢٥٦ - ٢٥٧، هامش (٢) حيث الإشارة إلى ما ذكره بوركات في كتابة فن الإسلام ولغته ومعناه إلى النموذج الموجود في كهف الصخرة بالقدس إذا صح أنه من عصر البناء الأول سنة ٧٢هـ/٦٩١م وكذلك راجع فريد شافعي: العمارة العربية في مصر المجلد الأول (عصر الولاة) ص ٦٠٥، وحول نشأة المحراب وأصله، راجع نفس المرجع ص ٥٨٤ ولنفس المؤلف راجع : العمارة الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها الرياض ١٩٨٢ ص ١٥٢ ومابعدها.

والذي شيد فيما بين عامي ٤٢٩هـ/٤٣٣هـ/١٠٣٧-١٠٤١م^(٥٢) وبعد ذلك بنحو قرن من الزمان نجد بجدار القبلة بمسجد السيدة رقيه (٥٢٧هـ/١١٣٣م) ثلاثة محاريب أيضاً. كما وصلنا من العصر الفاطمي ثلاث مشاهد بكل منها ثلاثة محاريب مجوفة في جدار القبلة، وهي مشاهد أخوه يوسف في أوائل القرن ٦هـ/١٢م ويحيى الشيبه (٥٤٥هـ/١١٥٠م) وأم كلثوم، وكلها معاصرة لتاريخ مسجد السيدة رقيه^(٥٣)، وإذا كانت الفكرة العملية هي التي أملت على مهندس الحكم فتح البابين المذكورين من أجل المحافظة على التناسق والتعادل ما بين تجويف المحراب والبابين المفتوحين عن يمينه ويساره فإن الفاطميين قد أخذوا من تلك الأبواب فكرتها العملية والمعمارية ثم طبقوها على محاريبهم مع شئ من الابتكار فظهرت في صورة معمارية جديدة.

وكذلك انتقلت فكرة تعدد المحاريب بجدار القبلة إلى العمارة المملوكية وقد تجلّى ذلك في عقدي المحرّبين اللذين يكتنفان المحراب الرئيسي في رباط أحمد بن سليمان الرفاعي (٦٩١هـ/١٢٩١)، ونفس هذا التأثير نجده في مدرسة السلطان برقوق^(٥٤) وفي جامع محي الدين أبو الطيب (٩٣٤-٩٣٦هـ-١٥٢٧م).

فعلى جانب حنيه المحراب دخلتان معقودتان بعقد مدبب كما يتجلى التأثير الواضح بمحراب جامع قرطبة في محراب مدرسة المنصور قلاوون من حيث عمق المحراب واتساع دخلته التي يكتنفها أربع دخلات بواقع دخلتين بكل جانب بالإضافة إلى زخارف واجهة المحراب التي تكاد تطابق

(٥٢) السيد عبد العزيز سالم : الآثار الإسلامية في دير سانت كاترين بطور سيناء (بحث ضمن موسوعة بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة الإسلامية - القسم الثاني - ص ٣٧١، حيث الإشارة إلى أنه بفضل النقش الكتابي المسجل على كرسى المسجد يمكن إرجاع تاريخ منبر مسجد الدير إلى ما بين عامي ٤٩٥-٥٠٠هـ/١١٠١-١١٠٦م، وأن هذا المسجد أقيم في خلافة الأمر بأحكام الله الفاطمي وتم بنظر الأمير أبي المنصور أنوشتكين الأموي، في حين أكد الدكتور أحمد فكرى أنه كان يظن بأن هذا المسجد قد بنى في عهد الأمر بأحكام الله سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م وهو تاريخ صنع المنبر المحفوظ بمسجد الدير، أما تاريخ إنشاء المسجد نفسه فصحته كما هو وارد في المتن (٤٢٩هـ/٤٣٣هـ) أحمد فكرى: المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها، العصر الفاطمي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م ج١، ص ١٤٥ هامش (١)

(٥٣) لوحة (٨، ٩، ١٠).

(٥٤) لوحة (١١).

زخارف محراب جامع قرطبة لاسيما في الفسيفساء الزجاجية الملونة التي تشغل جانبي عقد المحراب وقوامها توريقات وسيقان نباتية باللون الأزرق والذهبي والأحمر وكلها تذكر بزخارف الفسيفساء النباتية في محراب جامع قرطبة^(٥٥) والتي من أبرز عناصرها أشكال المراوح النخيلية البسيطة التي ظهرت في صورتين الأولى من فصين غير متماثلين وذلك في بائكة العقود الزخرفية التي تتوج المحراب، والصورة الثانية تتكون فيها من فصين متماثلين متداخلين عند برعم مركزي هذا بالإضافة إلى أنصاف المراوح النخيلية التي نشدها في عقد المحراب وقبته وأوراق الاكنتش في سنجات العقد وأزهار الزنبق ثلاثية الشحومات التي تشبه زهرة اللوتس وتبدو في شكل عقود متراكبه أو مفصصه تقوم على قاعدة تنبت منها سيقان مزدوجة ينفرع منها مراوح نخيلية ونشدها في زخارف قبة المحراب فضلا عن الأزهار متعددة البتلات التي يتراوح عددها ما بين أربع وست وثمان بتلات وأشكال الثمار ومنها كيزان الصنوبر ذات البدن المقسم بخطوط تشبه قشور السمك وحببات العنب التي تتدلى على جانبي ساق رأسيه تذكر بشكل شجرة الحياة .

وقد تطورت عمارة المحراب في جامع قرطبة تطورا متشعبا فلم يقتصر الأمر على ظهور البابين اللذين يكتنفان تجويف المحراب وشيوع استخدام الفكرة نفسها ولكن بصورة معمارية في محاريب العصر الفاطمي وبعض نماذج من العصر المملوكي بل عنى بوجود غرف تفضى إليها هذه الأبواب خصص بعضها كمخزن للجامع والبعض الآخر كحجرات للساباط الرابطة بين الجامع والقصر على نحو يذكر بمحراب إيوان القبلة بمدرسة المنصور قلاوون ٦٨٣هـ / ١٢٨٣م حيث يوجد على يمين المحراب ويساره دخلتان تشبهان دخلتي بابي مخزن وغرف الساباط بجامع قرطبة .

ويعتبر محراب ضريح أو قبه المنصور قلاوون من أجمل المحاريب المصرية بما يشتمل عليه من زخارف ونقوش غمرات واجهاته وفاقت غيرها من المحاريب التي تأثرت بمحراب جامع قرطبة. فهذا المحراب يماثل في جملة بعض التقاليد المعمارية والفنية لمحراب جامع قرطبة من حيث شكل العقد الحدوى واتساع فتحته^(٥٦) ووجود دخلات على جانبي المحراب احتشاد وحنيته وواجهته والأروقة التي تتقدمه بالعديد من

(٥٥) لوحة (٢، ٧).

(٥٦) لوحة (١٣).

الزخارف التي تذكر بزخارف محراب جامع قرطبة وزخارف الفنون الأندلسية بوجه عام والتي نذكر منها على سبيل المثال الزخارف الجصية على باب الدخول لقبه الضريح وتركزت بشكل واضح حول أحجبه التشبيكات الجصية التي تشغل النوافذ الثلاثة المعقودة والمزدانة بزخارف هندسية رباعية وخماسية وسداسية وثمانية موزعه توزيعاً هندسياً رائعاً على نحو يذكر بزخارف الحجر والرخام والجص بجامع قرطبة كما يحيط بتلك التشبيكات الجصية من الداخل أطار كتابي نطالع فيه عبارة الملك بالخط الكوفي الأندلسي وذلك في النافذة الوسطى، أما النافذتين اللتان تكتنفان النافذة الوسطى فهما متشابهتان من حيث الشكل وزخارف أحجبتها الجصية والتي يحيط بكل منهما أطار ضيق عبارة عن خطوط متوازية ترسم المثلثات مقلوبة ومعدولة بالتناوب مثل التي نراها في زخارف جامع قرطبة كما يتوج عقود النوافذ الثلاثة عقود متقاطعة تشبه العقود المتقاطعة التي يرجع ابتكارها إلى الفن المعماري الأندلسي.

ثالثاً : ظاهرة الدعائم المحمولة على أعمدة :

تعد أعمدة جامع قرطبة التي تكتظ بها زيادة الحكم المستنصر من أكثر أعمدة مباني المساجد الأندلسية ارتفاعاً وأبداعاً تقسيماً وجمالاً فهي مصنوعة من الرخام الأسود المجزع بالأبيض تتناوب مع أعمدة الرخام الرمادي المائل إلى الزرقة^(٥٧) الذي اشتهرت به جبال قرطبة^(٥٨). والرخام الوردي المجلوب من مدينة قبره^(٥٩). ومعظم هذه الأعمدة متساوية في ارتفاعها حيث نجح المعماري في معالجة الاختلاف في الارتفاع عن طريق التلاعب بأطوال التيجان وقواعد الأعمدة فبعضها يقوم على قواعد مستديرة تتخذ نفس قطر العمود من أدنى، وبعضها يخلو من تلك القواعد حيث تقوم مباشرة فوق أرضية المسجد، وهذه الأعمدة موزعة في صور مختلفة منها ما يبدو في شكل منفرد أو مزدوج، ومنها ما يبدو مندمجاً مع دعائم أو أكتاف تختلف في أطوالها وأشكالها وزخارفها^(٦٠). وإذا كانت عمارة جامع قرطبة منذ تشييده وإلى أن اتخذ شكله النهائي في عهد

(٥٧) لوحة (٤، ١٤، ب).

(٥٨) المقرئ : المصدر السابق جـ ١، ص ٢٠١، حيث الإشارة فيما نقله عن الرازي (وبالأندلس مقاطع للرخام وبقربطبة مقاطع للرخام الناصع والخمرى)

(٥٩) Torres Balbas : Arte Hispano Musulmana hasta la Caida del califato de cordoba en Historia de Espana T.V. p.454

(٦٠) لوحة [١٤، ب]

المنصور بن أبي عامر مروراً بزيادة الحكم تمتاز باستخدام الأعمدة في حمل العقود ورفع الأسقف فأن بناء الحكم استخدموا دعائم بدلاً من الأعمدة عندما هدموا جدار القبلة وأقاموا مكانه أحد عشر عقداً مزدوجاً تركز على دعائم ضخمة يسميها المؤرخون بالأرجل الحجرية الضخام^(٦١). ولكن المشكلة التي واجهت بناء الحكم كانت في كيفية حمل العقود المترابطة ورفع القباب الضخمة والسقف المسطح في الجزء الأوسط من بيت الصلاة مما يلي المقصورة الذي زاد ارتفاعه بما يعادل نصف ارتفاع سقف بيت الصلاة القديم. وبالفعل تمكن مهندس الحكم من ابتكار حل معماري أصيل لهذه المشكلة. فبالنسبة للجزء الأوسط من بيت الصلاة حيث السقف المسطح فقد أطال من الحدائر التي تنبت منها العقود الحدوية بالطابق الأدنى منها بحيث تحولت إلى دعائم ثمينة الشكل مكسوة بزخارف هندسية محفورة في الجص قائمة بين أعمدة تحمل عقود الطابق العلوى الذى يقوم عليه السقف^(٦٢). أما بالنسبة للقباب الأربعة والعقود التي تحملها والتي سبق الإشارة إليها فقد تم رفعها على أعمدة تنبت من قرم تيجان الأعمدة السفلية تميزت هنا بأنها أقل طولاً وأكثر نحوله وجمال من الأعمدة التي تدنوها، وبهذا الحل حقق مهندس الحكم عدة أهداف معمارية وجمالية فى آن واحد، وهى تحقيق الدعم المطلوب بأسلوب متطور حافظ فيه على إحداث التأثير الجمالى عن طريق استبدال الدعائم بالأعمدة، وهذه ميزة فنية وحل بارع لأن استخدام الدعائم من شأنه أن يفسد المظهر الجمالى الذى يسود بيت الصلاة ويمنع رؤية جدار القبلة، ولتنبت هذه الأعمدة ربط بين رؤوس تيجانها بأوتار رخامية ساعدت على تقوية هذه الأعمدة واستقرارها فوق الأعمدة التي تدنوها^(٦٣).

(٦١) ابن حيان: المقتبس نشرة الحجى - ص ٢٤٥ وكذلك راجع ابن عذارى - المصدر السابق - ج ٢ ص ٢٣٠، وفي موضع آخر يشير ابن عذارى إلى شروع الحكم المستنصر في زيادته بالجامع وأمره إلى حاجبه وسيف دولته جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي بالنظر فى سوق الصخور بقوله (وافتح فى خلافته بالنظر فى الزيادة فى المسجد الجامع بقرطبة وهو أول عهد انفذه وقلد ذلك حاجبه وسيف دولته جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي لأربع خلون لرمضان من السنة (٣٥٠هـ)، وهو اليوم الثانى من يوم خلافته فكان أول ما عهد إليه تقديم النظر فى سوق الصخور التى هى أساس البنيان فابتدئ بانتقالها فى رمضان المذكور راجع نفس المؤلف ص ٢٣٣

(٦٢) لوحة (١٤، ب)

(٦٣) لوحة (٤)

ونظراً لأن قبة الضوء هي الوحيدة من بين قباب المسجد التي تغطي ثلاثة أساطين أو مربعات بزيادة أسطوان عن قبة المحراب وأسطوانيين عن القبتين اللتين تكتنافه لذلك فقد أقام مهندس الحكم في كل ركن من أركانها أربعة أعمدة^(٦٤). موزعة عمودين متجاورين في الجانبين القصيرين من جوانب كل أسطوانة بينهما عمودين متباعدين من الجوانب الطويلة ثم عمود واحد في الجانبين القصيرين^(٦٥). ومن الملاحظ أن الأعمدة بعقودها لا تقسم المساحة في بيت الصلاة أفقياً إلى أروقة بل أنها بفضل العقود المزدوجة التي يحمل بعضها فوق أكتاف بعض تقسم بيت الصلاة أيضاً رأسياً بصفوف الأعمدة الراكبة العليا^(٦٦).

وهكذا نجح مهندس الحكم في استخدام الدعائم المحمولة على أعمدة التي يحمل بعضها بعض في حمل العقود ورفع السقف سواء المقرب أو السطح إلى ضعف ارتفاعه بوسائل مبتكرة أملت عناصر البناء ومواده التي تتوافر لديه فتم الاستغناء عن الدعائم التي كان يتطلب وجودها تخصيص جزءاً كبيراً من سطح أرضية بيت الصلاة يساوي تقريباً ضعف المساحة التي شغلتها الأعمدة المترامية والدعائم المحمولة على الأعمدة، وبالتالي اختلاف نسب تكوينها ومستويات ارتفاعها في جميع أنحاء المسجد

وتعد مجموعة المنصور قلاوون من أكثر آثار مصر المملوكية تعبيراً عن التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية حيث نشهد نفس الأسلوب تقريباً في معالجة رفع السقف بواسطة الدعائم المحمولة على أعمدة في مدرسة المنصورة قلاوون، ويتمثل في ذلك بوضوح في العقود الموزعة على طابقين بواجهه إيوان القبلة في عقود الرواق الأوسط من إيوان القبلة والعقود المطلة على الصحن بذات المدرسة^(٦٧).

رابعا : ظاهرة الكوابيل الحجرية ذات اللقائف:

لم يقنع مهندس جامع قرطبه بكل هذه الابتكارات بل زاد من جمال العقود والدعائم التي تحملها بأن جعلها تقوم على مساند أو كوابيل ذات لقائف متموجة ترتكز بدورها على الحوائط أو الطبالي الحجرية التي تعلو تيجان الطابق الأدنى من الأعمدة، فتساعد في تثبيت الضغط على رؤوس تلك

(٦٤) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق ص ٣٦١

(٦٥) لوحة (٧).

(٦٦) سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، ص ٣٠٦ لوحة ٢٣

(٦٧) لوحة (١١٥ ، ب)، لوحة (١٣).

التيجان والأعمدة وحمائتها من الانهيار، ومع أن هذا النوع من المساند ذات اللفائف قد استخدم في الجامع القديم منذ تشييده على عهد عبد الرحمن الداخل فهي من الابتكارات الأندلسية التي ظهرت لأول مرة بهذا الجامع إلا أنه من خلال وتتبع اصول هذا العنصر المعماري الزخرفي أي المسند ذو اللفائف^(٦٨)، وبداية ظهوره في زيادات المسجد المختلفة نجد أنه بلغ غاية التطور في زيادة الحكم ويلاحظ هذا الاختلاف المتطور في أن تلك المساند قد بدأت ملساء مجردة من اللفائف ثم أضيفت إليها تلك اللفائف التي تراوحت ما بين ثلاثة لفائف وبداية لفيفة رابعة^(٦٩). ثم أربع لفائف متكاملة ثم خمسة لفائف في زيادة الأميرين عبد الرحمن الأوسط

(٢٠٦-٢٣٨ هـ / ٨٢٢-٨٥٢ م) وابنه محمد (٢٣٨ - ٢٧٣-٨٨٦ م)^(٧٠) ثم أصبحت في زيادة الحكم تتألف من ست لفائف دائرية متراكبة أشد قوة وأكثر ثراء زخرفيا من كوابيل الدعائم السابقة عليها. حيث انفردت دون غيرها بظهور شريط على شكل شوكة أو شوكتين قسمت اللفائف التي يشتمل عليها الكابولي إلى أربعة أقسام منفصلة بحيث تبدو كما لو كان الكابولي قد تحول إلى عدة كوابيل. وأحيانا أخرى نلاحظ أن هذا الشريط قد قسم اللفائف إلى قسمين منفصلين وكأنه قد تحول إلى كابولين توأمين^(٧١)، وقد ظهرت أوجه تلك اللفائف أحيانا ملساء وأحيانا اتخذت أشكال خطافية مزدانة بتشكيلات هندسية وتوريقات نباتية قوامها محارة متعددة الفصوص

(٦٨) حول اصول هذا العنصر المعماري الزخرفي أكد جوميث مورينو بأنه لا يوجد أمثلة سابقة له سواء في العالم الشرقي أو الغربي القديم باستثناء تيجان سوسة وطاق بستان من العصرين الأحميني والساساني غير أن هذه الأمثلة تختلف عن كوابيل قرطبة الإسلامية كما أن الكوابيل القوطية التي ظهرت في شبه جزيرة أيبيريا قبل الفتح الإسلامي تختلف عن كوابيل جامع قرطبة في أنها تتكون من لفيفة واحدة قوامها انحناء في الحافة لا تقارن بكوابيل قرطبة متعددة اللفائف، جوميث مورينو: المرجع السابق ، ص ٤٣-٤٤، ويرجح الأستاذ جورج مارسيه أن القوط استهلموا فكرة هذه الكوابيل من الرومان Marçais (G) : Manuel d'art Musulman, t.I.p.263 وإذا انتقلنا إلى بلاد المغرب نجد أن تلك الكوابيل ظهرت في عمائر الأغلبية ١٨٤-٢٩٦ هـ / ٨٠٠-٩٠٨ م ولكنها نسقت في عمائر الأندلس تنسيقا أخرجها في مظهر أكثر إبداعا

Terrasse (Henri) : l'ar Hispano Mauresque des origines au xiii, e siècle p.114

(٦٩) لوحة (١٦) أ

(٧٠) Golvin (Lucien): Essi sur l'Architecture Religieuse Musulan, tome 4, editions Klincksieck, Paris 1979 , p.138

(٧١) لوحة ١٦ أ ، ب

ونصف مروحة نخيلية تمتد من أعلى الكابولي إلى خارج اللفائف بحيث تبدو كما لو كانت معلقة بالكابولي من الخارج^(٧٢). وأحيانا يشغل الفراغ الواقع بين اللفائف نقش كتابي بالخط الكوفي نطالع فيه عبارة التوحيد حروفه محفورة حفرا غائرا^(٧٣) فبدت كما لو كانت شبكة منسوجة أو كغلالة بديعة التطريز^(٧٤). وهكذا أولى فنان الحكم الكوابيل أهمية كبيرة فجعل منها عناصر جمالية بارزة لافتة للنظر جمعت بين القيم المعمارية والزخرفية فمعظم لفائفها مغمورة أو محصورة بين التشيكالات النباتية والهندسية، وفي نفس الوقت تركت مجالا واضحا للأرضية المجوفة التي برزت فيها النقوش الكتابية، وبذلك تضاعفت فيها المسطحات العارية وكونت أنواعا تختلف في أشكالها الخطافية وأساليب زخارفها عن الكوابيل السابقة^(٧٥). ومنذ ذلك الحين أي بعد زيادة الحكم شهدت الكوابيل الخطافية رواجاً كبيراً لاسيما في الواجهات الخارجية وأعتاب أبواب العمائر الدينية والمدنية والتي ترجع إلى ما بعد عصر الخلافة وحتى عصر بنى نصر ٦٢٩-٨٩٧هـ/١٢٣١-١٤٩٢م^(٧٦).

وقد استلهم مهندس جامع أحمد بن طولون أثناء تجديدات السلطان حسام الدين لاجين للجامع (٦٩٦هـ/١٢٩٦م) فكرة الكوابيل الحجرية ذات

(72) Golvin (Lucien) : op - cit , p.140

(٧٣) لوحة (١٦ب).

حنان عبد الفتاح مطاوع: الزخارف المحفورة في الحجر والرخام في الأندلس منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الطوائف، مخطوط رسالة ماجستير إسكندرية ١٩٩١م ص ١٤٦.

(٧٤) لمزيد من التفاصيل عن كوابيل جامع قرطبة وتطورها في زيادة الحكم المستنصر راجع:

Salem (Al - Sayyid Abdel Aziz : cronologia de la Mezquita Mayor de cordoba Lvantada por Abd Al Rahman I , Alandules vol , xix, 1954 , pp 404 - 408

السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ، ص ٢٥ - ٢٦

(٧٥) عثر على نماذج من الكوابيل متعددة اللفائف في جامع تطيلة المؤرخ بعصر الإمارة ومن خلال الدراسة التحليلية التي أفردها الأستاذ بافون مالدونالدو عن هذا النوع من الكوابيل، أكد على أنها لا ترجع إلى عهد بناء الجامع وإنما ترجع إلى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي إذا تدرج ضمن مجموعة كوابيل عصر الخلافة من حيث أسلوب التكوين المعماري والزخرفي .

Pavon Maldonado (Basilio) : La Mazquita Mayor de tudela, 1945 , pp.35-47

(٧٦) أحمد فكري : اثر العرب والإسلام على النهضة الأوروبية - القاهرة - ١٩٧٠ ص ٤٢٥

اللفائف بصورة تكاد تكون مطابقة لصورتها المعمارية والزخرفية التي ظهرت عليها في كوابيل زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبة حيث نشدها في كوابيل الفنطرة التي تربط المئذنة بالجامع وهو الأمر الذى يؤكد بأن جامع قرطبة ظل يمارس تأثيراته المعمارية على عمارة مصر المملوكية رغم الفارق الزمنى الكبير بين تاريخ ظهور تلك الكوابيل بجامع قرطبة وبين ظهورها فى تجديدات جامع ابن طولون فى العصر المملوكى^(٧٧).

كما نشهد نماذج لهذه الكوابيل على واجهه كتاب سبيل حسين الشعبي (ق ١٢هـ/ ١٨).

خامسا: العقود الحدوية

يتميز تكوين العقد الحدوى بأن تقويسه لا يقف عند الخط الأفقى الذى يقع عليه مركز العقد إذا كان نصف دائرى أو يقع عليه مركز العقد إذا كان مدببا، ومعنى ذلك أن هذا العقد يتميز بأنه مزود بمركزين بحيث يزيد ابتداءه عن خط امتداد رجلي العقد وقد اختلفت العقود الحدوية المتجاوزة فى نسب تكوينها باختلاف الزمن أو العصر الذى شكلت فيه فمع أنه ظهر قبل الإسلام فى آثار المسيحيين الأوائل حيث نجد أقدم أمثله فى معمودية مار يعقوب التى شيدت فى عام ٣٥٩م فى نصيبين بأسيا الصغرى وتوجد له أمثلة ظهرت فى العديد من الرسوم المنفذة على الأوانى الساسانية المعدنية كما وجد فى العصر الإسلامى فى سوريا فى الجامع الأموى بدمشق غير أنه اتخذ صورة جديدة فى بلاد الأندلس التى ظهر فيها لأول مرة فى تاريخ العمارة الأندلسية فى صورة معمارية .

ممثلا فى عقد باب سان استيبان المعروف بباب الوزراء بجامع قرطبة الذى يمثل مرحلة انتقال بين العقود المتجاوزة فى بيت الصلاة بالمسجد القديم الذى يرجع إلى عهد عبد الرحمن الداخل المتأثرة بتقاليد العقود فى أسبانيا القوطية والعقود الحدوية المشرقية التى نبت فيها مثل هذا النوع من العقود .

حيث تخلص العقد الحدوى الإسلامى فى بلاد المغرب والأندلس من كل التقاليد السابقة المشرقية والأسبانية القوطية^(٧٨).

(٧٧) لوحة (١٦ ح.)

(٧٨) لوحة ١١٧، ب، ج، د

وقد تجلى ذلك في وجود أسلوبيين في توزيع سنجات العقود الحدوية الأول يقتصر نظام التسنيج فيه على الجزء المركزي من العقد على نحو ما نشهده في عقد باب سان استيبان^(٧٩) أما الأسلوب الثانى المتبع فى تسنيج العقود فقد ظهر فى عقود الجامع التى ترجع إلى عصر الخلافة فى زيادات كل من الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر. والتى نرى فيها السنجات تحف بكامل دائرة العقد.

وقد ظلت العقود الحدوية الأندلسية مستخدمة وتتابع تطورها فى صور وأشكال مختلفة فى العمارة الأندلسية منذ عصر الدولة الأموية وحتى نهاية عصر بنى نصر بحيث طغى العقد الحدوى على ما عداه من أنواع العقود لاسيما العقد نصف الدائرى حيث استفاد المعمار الأندلسى من تلك العقود الحدوية فى حل العديد من المشكلات المعمارية التى قد لا تتوافر فى العقد نصف الدائرى الذى شاع استخدامه فى العمارة الإسلامية فى المشرق الإسلامى فى حين استقر العقد الحدوى وتابع تطوره فى الغرب الإسلامى.

حيث ظهر أولاً فى المغرب منذ أوائل القرن ٢هـ / ٨م فى جامع القيروان غير أن التجاوز فيه كان بسيطاً لا يزيد عن سدس شعاع العقد إلا أن التجاوز قد زاد فى جامع قرطبة فلم تعد دائرة العقد العليا تتمركز على نفس مركز الدائرة السفلى وترتب على ذلك أن مفتاح العقد أصبح يزيد فى الطول عن السنجات الأخرى.

ووفق حسابات هندسية دقيقة فضل مهندس جامع قرطبة فى زيادته المختلفة العقد الحدوى المتجاوز على العقد نصف الدائرى الذى اقتصر استخدامه على العقود العليا التى تحمل السقف الخشبي و تقوم على الدعائم العليا فى حين . استخدمت العقود الحدوية فى الطابق الأدنى التى تقوم على الأعمدة السفلى وذلك لعدة أسباب منها :

- (١) أن العقد الحدوى يسمح بدخول قدر أكبر من الضوء لاسيما فى بيت الصلاة لأن محيط فتحة العقد الحدوى أوسع من العقد نصف الدائرى .
- (٢) مقاومة العقد الحدوى أكبر من مقاومة العقد نصف الدائرى لأن قوة الدفع الناشئة عن انحنائه تندفع داخل حدود العقد ولا تندفع خارجه وبالتالي تساعد على تماسك أجزائه وبذلك أغنت العقود الحدوية بجامع قرطبة عن استخدام الأوتار الخشبية بين طرفى كل عقد .

(٣) الحائط الذي يرتفع فوق العقد نصف الدائري يزيد حوالى ٢ م عن مثيله الحدوى و النتيجة أن قوة احتمال العقد الحدوى تزيد بقله الحمل الناتجة عن انخفاض ارتفاع الحائط الذي يعلوه وينتج عن قله ارتفاع الجدران التي يحملها العقد الحدوى قله فى المصاريف ومواد البناء . وتتويجا لاسبقية جامع قرطبة فى ابتكار أمثلة مبتكرة من العقود الحدوية نجد أن مهندس الجامع قد نوع فى نسب تكوينها بحيث يمكن تقسيمها إلى عدة أنواع منها نوع جديد ذو قمة مدببة حادة تشبه العقد الرمحى الذى شاع استخدام فى أوربا فيما بعد فى العمارة القوطية وفيه نجد أن دائرة العقد العليا التى تطوق رؤوس السنجات ترتبط مع رأس مثلث يطلق عليه اسم samler بمعنى مائدة العقد فى حين يسمى القسم الأدنى الذى يشتمل على كتفى الحنيه اليمنى واليسرى للعقد المجاور له اسم Jara بمعنى نبله أو حربه وتردان الحربه التى يستمر أنحنائها المقوس على كتفى العقدين حتى تلتقى عند حداره العقد بتوريقات نباتية تختلف عن توريقات السنجات و مثل هذا النوع من العقود يقتصر فيه التسنيج على الثلث العلوى من العقد وتعرف فى اللغة الأسبانية باسم arcos enjaradas أى العقود رمحية الشكل غير المسنجه تسنيجاً كاملاً.

وهكذا يتضح أن صفة العقد الحدوى بجامع قرطبة قد تطورت واكتسبت مميزات لا نراها فى شرق العالم الإسلامى ووسطه بل وفى بلاد المغرب عند بداية استخدامه وكان من اثر ذلك أن زادت العناية بالعقود الحدوية ومارست تأثيرها على العمارة الأوربية لاسيما بجنوب فرنسا وعلى العمارة المملوكية فى مصر حيث نشهد أول نماذجها فى عقد المحراب بقبة المنصور قلاوون^(٨٠) وعقود القاعدة المربعة للمئذنة^(٨١).

كما نشهدها فى بنفس نسب تكوينها وصفاتها فى عقد باب المدخل المؤدى إلى مئذنة جامع أحمد بن طولون من عهد السلطان لاجين وفى قاعدة المئذنة وفى القنطرة التى تربطها بالجامع^(٨٢).

كذلك استخدم العقد حدوة الفرس فى العقد الذى يتوج مدخل مدرسة المنصور قلاوون (٦٨٣-٦٨٤هـ/١٢٨٣-١٢٨٤م) وفى عقود الصفة الجنوبية الغربية بذات المدرسة وعقد المحراب بجامع عبد اللطيف القرامز

(٨٠) لوحة ١٨

(٨١) لوحة ١٩

(٨٢) لوحة ٢٠

٩٩٠هـ / ١٥٨٢ م وعقود سبيل كتاب سليمان جاويش ١٠٧٢ هـ / ١٦٦٢ م وواجه حمام الملاطيلي ١١٩٨هـ / ١٧٨٠ م وعقد الباب المؤدى إلى الساحة المكشوفة بدهليز جامع الجوهرى ١٢٦١هـ - ١٢٦٥هـ / ١٨٤٥ م - ١٨٤٨ م وعلى مؤذنة مدرسة سلار وسنجر الجاولى ٧٠٣هـ / ١٣٠٣ م والواقع أن أناقه العقود الحدودية فى كل هذه الأمثلة التى ترجع إلى العصر المملوكى ليست سوى نتيجة طبيعة للعلاقات الودية التى ربطت مصر بالأندلس فى العصر المملوكى .

سادسا : العقود المفصصة :

هو العقد الذى تتألف استداره حافته السفلية من أقواس صغيرة يطلق عليها اسم الفصوص .

وقد ظهر هذا العقد لأول مرة فى العمارة الأندلسية بجامع قرطبة على النافذة اليمنى لباب سان استيبان^(٨٣) من عهد عبد الرحمن الأوسط ثم فى صورة زخرفية بحتة على أحد جدران دار الجند بمدينة الزهراء. وفى المثاليين ظهر بصورة زخرفية بحتة أما عن استخدام العقد المفصص كعنصر معمارى مرتبط ببناء الجامع فلم يظهر قبل زيادة الحكم المستنصر فى عام ٣٥١هـ / ٩٦١م^(٨٤). فالهدف إلى توخاه مهندس الحكم اختلف عن هدف زميله الزهراوى فى عهد أبيه الناصر من حيث استخدامه فى زيادة الحكم فى صورة إنشائية دون أن يفقد مظهره الجمالى. وتتويجا لأسبقية مهندس الحكم^(٨٥). وفى ابتكار أول أمثلة العقود المفصصة فى العمارة

(٨٣) لوحة ١٧ د

(٨٤) Camps (y) Cazorla (E): Modulos Proportions y composicion en la Arquitectura califal cordobesa, Madrid 1953, p.29

(٨٥) أصول العقود المفصصة مشرقية وبدأت قبل الإسلام فى العقد البيضى لأيوان كسرى واستمرت بعد الإسلام حيث ظهرت فى باب بغداد بالرقه ١٥٥هـ / ٧٧٢ م وقصر الأبخضر ببادية العرق ١٦٣هـ / ٧٨٠ م وفى مسجد عمرو بن العاص ٢١٢هـ / ٨٢٧ م ومنبر جامع القيروان ٢٢١هـ، ٨٣٦ وفى محراب المسجد الجامع بسامراء ٢٤١هـ / ٨٦٢ م وجامع أحمد بن طولون بالقاهرة ٢٦٦هـ / ٨٧٩ م وغير ذلك من الآثار المشرقية وبذلك فهو يمثل أحد التأثيرات المشرقية على العمارة المغربية الأندلسية ولكن استعماله بتلك العنصر فاق الاستعمال المشرقى لها. كما أن المعمار فى غرب العالم الإسلامى أضفى عليه من الابتكارات ما جعله يختلف شكلا ونظما عن أصوله المشرقية: لمزيد من التفاصيل راجع عبد الرحيم غالب : موسوعة العمارة الإسلامية - الطبعة الأولى - بيروت ١٩٨٨ م ص ٢٨١-٢٨٢، فريد الشافعى: المرجع السابق : ص ٢٠٣، مورينو: المرجع السابق - ص ١١٦، ١١٧.

الأندلسية نجده قد نوع في نسب تكوينها وعدد فصوصها بحيث يمكن تقسيم نظام بنائها إلى ثلاثة أنواع. الأول: ثلاثى الفصوص نشهده بصورة متطورة ومبتكرة ميزته عن صورته الزخرفية التى اشتق منها وذلك فى واجهة المحراب. وفى داخل تجويفه^(٨٦) والنوع الثائى: نصف دائرى خماسى الفصوص ونشهده على سبيل إدخال عند مدخل البلاط الأوسط لزيادة الحكم، وفى قاعدة قبة المحراب^(٨٧)، وفى أحد أبواب الحكم بالواجهة الغربية لبيت الصلاة أما النوع الثالث فمتعدد الفصوص ولكنه منكسر ونشهد فى مواضع عديدة من زيادة الحكم^(٨٨).

وهكذا يتضح أن صفة العقد المفصص التى بدأت زخرفية فى مدينة الزهراء تحولت إلى وظيفة معمارية لأول مرة فى زيادة الحكم إذ استفاد منها مهندس تلك الزيادة فى رفع السقف المقبب وتحمل الضغط الذى تمارسه. كما عمل على تنويع أشكال هذه العقود، وكان من أثر ذلك أن انتشر استخدامها بعد ذلك بزيادة المنصور بن أبى عامر بنفس الجامع ثم زادت العناية بها بعد ذلك منذ عصر الطوائف وحتى نهاية عصر بنى نصر^(٨٩)، وإن كانت العقود متعددة الفصوص بنوعها المدبب ونصف

Camps (y) Cazorla (E) : Op – cit , p.p.39-40

(٨٦) لوحة ٢١ أ

(٨٧) لوحة ٢١ ب، لوحة ٢

(٨٨) لوحة ٢١ ح

(٨٩) إذا كان الشكل العالم للعقد المفصص قد نقله المعمارىون فى عهد الحكم من الشكل الزخرفى الذى ظهر عليه بمدينة الزهراء أو من بلاد المشرق، فإن عمارة الحكم كانت المصدر الذى استوحى منه مهندسو عمائر الأندلس بعد ذلك العقود المفصصة بأنواعها المختلفة التى بدأت بثلاثة فصوص ووصلت إلى إحدى وعشرون فصا ثم أخذت تتعد وتطور فى شكل هندسى يختلف عن شكل العقود المفصصة التى ظهرت فى جامع قرطبة.

Campsy Cazorla (E) : op –cit , p.p. 44-45

وقد تردد صدق هذه العقود المفصصة بشكلها الهندسى الذى تختلط فيه الخطوط بالمنحنيات فى المئذنة التى تعلو الباب الأخضر بمشهد الإمام الحسين عليه السلام (٦٣٤هـ/١٢٣٦م). وفى الزخارف الجصية المنحوتة بالطاقات التى انتظمت بالواجهة الجنوبية من الطابق الأدنى بهذه المئذنة، وفى التشبيكات الخطية للفتحة الجليلة بين اللامين، وفى عبارة (الملك لله) بضريح الإمام الشافعى السيد عبدالعزيز سالم : التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب الإسلامى فى مجال فنون العمارة والزخرفة مقال ضمن موسوعة بحوث إسلامية فى التاريخ والحضارة والآثار - القسم الثانى - الطبعة الأولى - دار الغرب الإسلامى - ١٩٩٢ - ص ٤٤٠

الدائري تعد من أروع ما عرف من العقود الإسلامية المفصصة تكويناً ورشاقة وثناء بلغ الغاية في الابتكار المعماري والزخرفي بحيث تجاوزت بكل الأبعاد الاستعمال السابق لها واللاحق عليها في شرق وغرب العالم الإسلامي. فعلى أساس هذا الابتكار المتطور يمضي العقد المفصص في زيادة الحكم نحو التعقيد فيتألف من فصوص عديدة تنتهي برؤوس مدببة جعلته يبدو في شكل هندسي مقصوص يختلف كل الاختلاف عن أشكال العقود التي يبدأ عدد فصوصها بثلاثة ثم خمسة ثم تسعة ثم إحدى عشر ثم ثلاثة عشر إلى أن بلغت إحدى وعشرين فصاً.

ورغم روعة التكوين الهندسي التي ظهرت عليه العقود المفصصة في زيادة الحكم بأنواعها المختلفة إلا أن الفنان في إطار سعيه نحو تطوير العنصرين المعماري والزخرفي معاً نجده يزين سجاجات فصوص العقود بوريقات نباتية تشبه المنقوشة في طرته.

وقد اتخذت العقود المفصصة الأندلسية أنموذجاً لنظائرها في عمارة مصر الإسلامية حيث تظهر أمثلتها في واجهه جامع الأقمر^(٩٠) (٥١٩هـ/١١٢١م) وفي نوافذ قبلة مشهد السيدة عاتكة^(٩١) (٥١٤هـ/٥١٩هـ - ١١٢٠ - ١١٣٥م) وفي قبلة السيدة رقية^(٩٢) (٥٢٧هـ/١١٣٣م) وفي دعائم الواجهة الشمالية الغربية بقبة الإمام الشافعي^(٩٣) ٦٠٨هـ/١٢١١م وعلى نوافذ المدرسة الكاملة المطلية على الصحن ٦٢٢هـ/١٢٢٥م.

وفي العمارة المملوكية نجدها في صورة زخرفية على المداخل الجانبية بجامع الظاهر بيبرس^(٩٤) (٦٦٥هـ - ٦٦٧هـ/١٢٦٦ - ١٢٦٨م) وفي مئذنة الناصر محمد بن قلاوون^(٩٥) (٦٩٥هـ/٧٠٣هـ / ١٢٩٥ - ١٣٠٣م) وفي مئذنة مدرسة سلار وسنجر الجاولي (٧٠٣هـ/١٣٠٣م)^(٩٦).

(٩٠) لوحة ٢٢.

(٩١) لوحة ٢٣

(٩٢) لوحة ٢٤

(٩٣) لوحة ٢٥

(٩٤) لوحة ٢٦

(٩٥) لوحة ٢٧

(٩٦) لوحة (٢١)، لوحة (٢٨).

سابعاً : العقد التوأمي Arcos Gemelos

يتألف هذا النوع من العقود من عقدين متجاورين ومتماثلين سواء كانا نصف دائريين أو متجاوزين لنصف الدائرة يرتكزان على عمودى أوسط مركزى^(٩٧) .

وقد وصلنا منه أمثلة عديدة فى مختلف عمائر الأندلس منذ عصر الخلافة وحتى نهاية عصر بنى نصر ويشاهد أقدم وأروع أمثلة هذا النوع من العقود فى مؤذنة عبد الرحمن الناصر^(٩٨) وفى زيادات المسجد فى عهد الحكم المستنصر ومن هذا العقد تطورت أشكال العقود الصماء التى لا تؤدى وظيفة معمارية فى المباني فهى مسدودة غير نافذة فى الجدران ويتخذ العقد الأصم المسطح فى معظم الأحيان شكل مدخل أو باب أو نافذة أو يحدد مكان المحاريب غير المجوفة أو يشير إلى مكان جلوس الحاكم فى صدر القاعات بمجالس القصور الملكية على نحو ما نشهده فى المجلس الفاخر بمدينة الزهراء حيث حرص الخليفة عبد الرحمن الناصر على أن يكون العقد الذى يحدد مكان جلوسه مسطحا وملتصقا بالجدار وبارزا بروزا حقيقيا متحاشيا أن يكون مجوفا حتى لا يختلط بشكل المحراب .

وهكذا نأفص العقد التوأمي من حيث الشهرة والانتشار العقد الحدوى وأصبح مثله أكثر التصاقا بالعمارة الأندلسية ومنها انتقل إلى عمارة مصر المملوكية ووصلتنا منه أمثلة عديدة منها النوافذ ذات العقود التوأمية فى قبة فاطمة خاتون ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م وفى القاعدة المربعة جامع أحمد بن طولون^(٩٩) من عهد لاجين ١٢٨٤/١٢٨٥م وفى مؤذنة مدرسة سلار وسنجر الجاولى وعلى الواجهه الجنوبية الشرقية بجامع محب الدين أبو الطيب ٩٣٤هـ / ٩٣٦هـ / ١٢٥٧-١٥٢٩م والواجهة الشمالية الغربية لجامع مراد باشا ٩٧٦-٩٧٩ - ١٥٦٨ - ١٥١٧م وعلى الواجهة الجنوبية الشرقية لقبه الشعرانى ٩٧٥هـ - ١٥٦٧م .

ثامناً : العقد ذو اللقائف

لم يقف إبداع مهندس الحكم عند حد استخدام العقد المفصص بأنواعه المختلفة بل استخدام عقد آخر هو فى الحقيقة انعكاس لأنواع العقود متعددة الفصوص المستخدمة فى الزيادة الحكمية ولكنه فى ذات الوقت يضاف إلى

(٩٧) لوحة ٢٩

(٩٨) لوحة ٣٠

(٩٩) لوحة ٢٠

سجل الابتكارات التي توصل إليها مهندس الحكم في تلك الزيادة التي نجد فيها طريقة جديدة في تكوين الأشكال الزخرفية لنوع من العقود بعرف بالعقد المدبب ذو اللفائف^(١٠٠) أي الذي تتكون استدارته من لفائف خطافية الشكل ذات حجم واحد تقريباً بحيث تشبه لفائف الكوابيل التي بلغت في عصر الحكم المستنصر بنفس المسجد غاية التطور وجنحت إلى الزخرفة الخالصة، وقد استخدم هذا النوع من العقود ذو اللفائف على نطاق محدود في زيادة الحكم بحيث اقتصر استخدامه على الاسطوانيين أو المربعين المجاورين للمحراب شرقاً وغرباً والذين يحددان نهاية المقصورة من تلك الجهة^(١٠١)، ولم يبق من هذين العقدين سوى عقد واحد فقط. وهو العقد المجاور للمحراب من جهته الشرقية^(١٠٢).

وهذا النوع من العقود ذات اللفائف بما يؤديه من وظيفه معمارية وزخرفية منفذه بمهارة وفقاً لمعايير وأسس دقيقة كانت له أصداؤه على ظهور العقود ذات الوسائد أو المخدات التي ربما ظهرت لأول مرة في مصر الإسلامية على جانبي باب المفتوح بأسوار القاهرة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م^(١٠٣) كما ظهر في عقد المدخل الرئيسي بجامع الظاهر ببيرس ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م^(١٠٤). وعلى القاعدة المربعة بمئذنة المنصورة قلاوون نشهد هذا العقد يحيط بالعقود التوأمية ويعلوه العقود المفصصة وحول الطابق العلوى المستديرة نجد أروع نماذج العقود الأندلسية المتقاطعة وكلها تنطق بالتأثيرات الأندلسية الواضحة .

(١٠٠) تجدر الإشارة بهذه المناسبة إلى أن العقد المنكسر أو المدبب يرجع مثل العقد المفصص إلى أصول مشرقية غير أن العقد المدبب لم يكتب له الاستمرار والانتشار الذي حظى به العقد المفصص الذي أصبح منذ زيادة الحكم المستنصر أكثر التصاقاً بالعمارة الأندلسية بحيث نafs من حيث الشهرة والانتشار العقد الحدوى (جوميث مورينو : المرجع السابق، ص ١١٩)، ولمزيد من التفاصيل عن نشأة العقد المدبب أو المنكسر راجع أحمد فكرى: المرجع السابق ص ١٥٤، ١٥٨، عبد الرحيم غالب : المرجع السابق ص ٢٧٩

(١٠١) لوحة (٣١).

(١٠٢) جوميث مورينو : المرجع السابق ص ١١٩

(١٠٣) لوحة (٣٢).

(١٠٤) لوحة (٣٣).

تاسعاً: أثر قباب جامع قرطبة على نشأة القباب المقرنصه :

ولم تقتصر أهمية قباب قرطبة على فكرة الضلوع المتقاطعة التي مارست تأثيرها الواضح على نظام التقبيب داخل وخارج بلاد الأندلس ولكن أيضاً في أنها بشرت بظهور حلقة جديدة من سلسلة تطور القباب المفصصة التي نراها في الفراغ الأوسط المثلث الذي يمثل خوذة القبّة^(١٠٥)، وتتلاقى عنده ضلوعها الثمانية فهذه القباب المفصصة وأن كانت قد ظهرت بكثرة في العمائر الرومانية والبيزنطية إلا أن عرفاه البناء الأندلسيون حوروا عناصرها إلى حد أن القباب الإسلامية المفصصة اتسمت بذاتية ابعدها عن الأمثلة الرومانية والبيزنطية فمن هذه القبوة المفصصة استلهم الفنانون المغاربة والأندلسيون فكرة قبابهم المفصصة التي تمثلت أقدم نماذجها في القبّة التي تتقدم محراب جامع القيروان (٢٢١-٢٢٢هـ/٨٣٦-٨٣٧م) ثم في القباب الأربعة بزيادة الحكم بجامع قرطبة وأن كانت هنا تبدو مستقلة عن الغطاء الذي يكسو هيكل الضلوع على عكس قبّة المحراب بالقيروان المرتبطة تماماً بفصوص الخوذة الكروية، وفي عصر الطوائف ظهرت القباب المفصصة في قبّة المحراب بمصلى قصر الجعفرية بسرقسطة (٤٤١-٤٧٥هـ/١٠٤٩-١٠٨٢م) ثم ظهرت في عصر المرابطين بجامع تلمسان (٥٣٠هـ/١١٣٥) وقباب جامع القرويين بفاس (٥٣٠هـ/١١٣٥م) وقبّة الباروديين بمراكش (٥١٤-٥٢٥هـ/١١٢٠-١١٣١م)^(١٠٧). كما انتشر استخدامها في عمائر الموحدين فنجدها في مؤذنة جامع القصبّة بمراكش (٥٩١هـ/١١٩٥م) وفي بهو البرتقال بمسجد

(١٠٥) لوحة (٣٤).

(١٠٦) مر بناء جامع القرويين بثلاث مراحل الأولى عند تأسيسه عام ٢٤٥هـ/٨٥٩م والثانية في عام ٣٤٥هـ/٩٥٦م. أما الثالثة فتتم في عهد المرابطين، وبدأت في عام ٥٣٠هـ/١١٣٥ وانتهت عام ٥٣٨هـ/١١٤٣ وفيها أقيمت خمس قباب من المقرنصات والضلوع البارزة (توريس بلباس: الفن المرابطي والموحدي. ترجمة سيد غازي، ص ٥٢، السيد عبد العزيز سالم: مسجد القرويين بفاس، كتاب الشعب عدد ٧٨ ج ٢ ١٩٦٠ ص ١٧٩، ١٨٢)

(١٠٧) تعد هذه القبّة من أروع ما أنتجه الفن المرابطي وهي تقع بالقرب من الجامع الذي شيده على بن يوسف بمراكش ثم هدمها الموحدون عند استيلائهم على المدينة ولعلها ترجع إلى الفترة من عام ٥١٤/١١٢٠ إلى عام ٥٢٥هـ/١١٣١م وربما قصد بها أن تكون مدفناً لأحدى الشخصيات الكبيرة ثم تحولت إلى ميضأه (لمزيد من التفاصيل: راجع توريس بلباس: المرجع السابق، ص ٤٦-٤٧)

الموحدين باشبيلية (٥٦٧هـ/١١٧١م). ومن عصر بنى نصر فى الأندلس وصلنا ثلاثة نماذج من القباب المفصصة اثنان منهما يغطيان باب السلاح بقصبة الحمراء بغرناطة. والثالثة تتوج برج الأسنة الواقع إلى جنوب بهو الأسود.

ومن بلاد المغرب والأندلس انتقلت إلى مصر المملوكية فكرة التغطية بقباب وقبوات وأسقف مقربصه أو ذات بطون مقرنصة^(١٠٨) كما يسميها أهل المغرب فمن نفس طابع القبوات التى ظهرت بصور زخرفية فى الفراغ الأوسط المثلث الذى يمثل خوذة القباب بجامع قرطبة استلهم المعمار المملوكى فكرة القبوات المقرنصة والمثل لذلك ما نشهده فى سقف الأيوان الجنوبى بمدرسة برقوق بالبحاسين^(١٠٩).

وفى مدخل جامع بشتاك بدرب الجماميز^(١١٠) ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م ومدخل جامع الماس الحاجب بمنطقة الحلمية ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م وفى قبوه ودركاه جامع المؤيد شيخ^(١١١) والجاى اليوسفى التى تتميز بخطوطها الهندسية المتشعبة وتترك فى مركزها فراغ تملأه مقرنصات أختفى ورائها الشكل المصلب وهى على هذا النحو تميل إلى التخطيط المصلب المتقاطع بصورة مطابقة للأصلى الطليطلى لقباب مسجد الباب المردوم المنقولة عن الأصل القرطبي لقباب الجامع ولكن بصورة زخرفة وهناك من ينسب الفضل فى ابتكار هذا الأسلوب فى التغطية إلى بلاد الشام على أساس أنها ظهرت فى سوريا إلا أن هذا الرأى لا يقوم على أساس محقق حيث أفرد أستاذى المرحوم الدكتور عبد العزيز سالم دراسات عديدة ناقش فيها هذا الرأى

(١٠٨) لمزيد من التفاصيل عن القباب المفصصة وأثر قباب القيروان فى نشأتها وقباب الحكم بقرطبة فى تطورها راجع :

Torres Balbas : Las Bovedas Agallondas de la Al Hambra , Al andulas , vol , ii, 1934 , pp.373-375

عن القباب المقرنصة راجع : محمد الكحلاوى : القباب المقرنصة فى المغرب الأقصى فى عصر المرابطين مجلة التاريخ والمستقبل - كلية الآداب جامعة المنيا ١٩٣٣

(١٠٩) لوحة (٣٥).

(١١٠) لوحة (٣٦).

(١١١) لوحة (٣٧).

ودرس هذه القباب دراسة وافيه أوصلته إلى أن الأصول الأولى لتلك القباب ترجع إلى بلاد المغرب والأندلس^(١١٢).
عاشراً: ظاهرة تناوب الألوان في نموذج قرطبة وأثرها على عمارة مصر الإسلامية:

بقدر اهتمام البناء في جامع قرطبة بقوة العقود الحدوية اهتموا أيضا بتحليله هذا النوع من العقود بحليات وتنميقاتها بعضها نابع من صميم مواد البناء وبعضها الأخر نابع من زخارف وسنجات تلك العقود .
ويهمنا النوع الأول الذي يتجلى فيه تأكيد الأحساس بجمال تلك العقود من خلال تناوب اللونين الأحمر وهولون قوالب الأجر مع اللون الأصفر الباهت وهو لون الكتل الحجرية، وقد تولد من هذا التناوب بين هاتين المادتين الحجر والأجر حلية بسيطة في فكرتها عظيمة في قيمتها الجمالية نشهدها لأول مرة في عمائر الأندلس بعقود جامع قرطبة منذ عهد عبد الرحمن الداخل^(١١٣) وظلت مستخدمه وتتابع تطورها في أشكال وصور متعددة بمعظم عمائر الأندلس حتى نهاية عصر بنى نصر، وتجدر الإشارة إلى أن تناوب الألوان على هذا النحو لم يكن ابتكارا إسلاميا أو أندلسيا بل ظهر في الفنيين الروماني والبيزنطي كما عرفه العرب قبل الإسلام في عمائرهم وانتقل إلى بعض العمائر الإسلامية المشرقية في أوائل القرن ٢هـ/٨م مثل بعض عقود جامع حماه وقصر الحلابات من العصر الأموي وإذا كانت فكرة التناوب بين الألوان قد وفدت من المشرق غير أن الطريقة البنائية التي ظهرت في عقود قرطبة وامتدت إلى أبوابه وجدرانه الخارجية تتميز بطابع محلي عرفته العمارة الرومانية في شبه جزيرة ايبيريا ممثلا في عقود جسر المياه بمارده، ويختلف إلى حد كبير عن طابع العمارة المشرقية التي أشرت إليها، ويتجلى هذا الاختلاف في أن التناوب بين اللونين الأحمر وهو لون قوالب الأجر مع اللون الأصفر وهو لون الكتل الحجرية قد تولد من مادتين معماريتين مختلفتين عكس الإبنية المشرقية

(١١٢) السيد عبد العزيز سالم : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية - مجلة المجلة - عدد ١٢ القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٩٧-٩٩
(١١٣) لوحة (٣٨).

التي يعتمد فيها تناوب الألوان على استخدام مادة الحجر كمادة زخرفية^(١١٤) والمعروفة باسم الحجر المشهر وهو نوع من الحجر الفص النحيت تتألف مداميكه من اللون الأبيض والأحمر وتعرف طريقة الزخرفة المعمارية به بين الأثاريين باسم الأبلق غير أن لفظه المشهر تعد اعم وأشمل في معناها من لفظه الأبلق التي تعنى لونين أبيض وأسود أبيض وأحمر فقط سواء كان ذلك في الحجر أو الرخام أو الأجر^(١١٥).

ومن خلال تتبع أصول هذا العنصر المعماري الزخرفي أي المشهر وبداية ظهوره في عقود وواجهات زيادات جامع قرطبة نجد أنه لم يستخدم في أثر من الآثار قبل الإسلام وبعده من حيث التنوع والكثرة مثلما استخدم أولاً في عقود جامع قرطبة ثم في مختلف عقود وواجهات عمائر أسبانيا الإسلامية منذ عصر الدولة الأموية وحتى نهاية عصر بنى بل واستمر في الفن المدجن وتأثرت به العمارة المسيحية الأوربية في إيطاليا والرومانسيكية في أسبانيا وجنوب فرنسا .

وإذا انتقلنا إلى مصر الإسلامية نجد هذا النوع من الزخرفة قد انتقل إليها من الأندلس حيث استخدم تناوب الألوان كحليه معمارية في عمارة مصر المملوكية منذ عهد السلطان بيبرس البندقداري في أوائل النصف الثاني من القرن ٧هـ / ١٣م وقد تجلى ذلك في المدخل الجنوبي الغربي لجامعة بحى الظاهر ٦٦٥هـ / ٦٦٧م، ١٢٦٦ / ١٢٦٩م وفي مدرسة المنصور قلاوون ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م وعلى واجهه مدرسة الناصر محمد بن قلاوون^(١١٦) ٦٩٥هـ / ٧٠٣م وفي مسجده بالقلعة ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م ومدرسة برقوق^(١١٧) إلى غير ذلك من منشآت المماليك بمدينة القاهرة .

١١ - ظاهرة تناوب سنجات العقود الملونة مع السنجات المنقوشة بالزخارف :

إلى جانب استخدام الألوان الطبيعية في زخرفة العقود ابتكر الفنان القرطبي فكرة جديدة في تزيين العقود تعتمد على تناوب السنجات الملونة بألوان

(١١٤) جوميث مورينو : الفن الإسلامي في أسبانيا ترجمة - لطفي عبد البديع و، عبد العزيز سالم : مراجعة جمال محرز - الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٨ ، ص ١٨

(١١٥) سامي عبد الحليم : الحجر المشهر حليه معمارية بمنشآت المماليك في القاهرة دار الوفاء للطباعة والنشر ١٩٨٤ ص ١٦ - ١٧

(١١٦) لوحة (٣٩).

(١١٧) لوحة (٣٩).

طبيعية تمثل لون الحجر أو الأجر مع سنجات أخرى منقوشة بالزخارف النباتية وتعتبر هذه الطريقة من أكثر الطرق تعبيراً عن فنون الزخرفة القائمة على فكرة التضاد وما تعكسه من تأثير جمالي^(١١٨).

ومن خلال تتبعي لهذا الأسلوب اتضح أنه ربما كان مطبقاً في شبه جزيرة أيبيريا قبل العصر الإسلامي وعلى نماذج قليلة في العمارة القوطية وأنه كان مقصوراً على الزخارف الهندسية المحفورة على الحجر أو الجص فقط. ولكن الجديد هنا هو الاستعانة بالأجر في الحصول على تشكيلات نباتية يصعب تنفيذها على الحجر والجص باستخدام هذه الطريقة المبتكرة.

ومن هنا يمكن القول بأنه إذا كان للفن الروماني أو القوطي تأثيره على الفن الإسلامي في الأندلس من حيث أن شبه جزيرة أيبيريا كانت مدرسة لهذين الفنين فإن استخدام الأجر المنقوش بالزخارف النباتية على هذا النحو يمثل ابتكاراً اختص به فنان جامع قرطبة حيث نجد أروع وأقدم الأمثلة التي استخدم فيها هذا الأسلوب المتطور على عقود مداخل ونوافذ واجهات الجامع والتي تعتبر من أكثر الأمثلة تعبيراً عن فن النقش في عصر الخلافة وقد انتقلت هذه الظاهرة من الأندلس إلى مصر بشكل واضح في عصر دولة المماليك الجراكسة واتخذت في هذا العصر مظهراً رائعاً نلمسه في عدد من عمائر هذا العصر منها جامع الأمير قجماس الإسحاقى بالدرب الأحمر وجامع ومدرسة السلطان الأشرف قنصوة الغورى فى الغورية ومدرسة الأشرف قايتباى بصحراء المماليك.

وعقود الصفة الجنوبية الغربية لمدرسة المنصور قلاوون وعقد أيوان القبلة بجامع محب الدين أبو الطيب (٩٣٤-٩٣٦هـ / ١٥٢٧-١٥٢٩) والواجهة الشمالية الشرقية لجامع عبد اللطيف القرافى ٩٩٠هـ / ١٨٥٢ وواجهه جامع الجوهري المطله على الساحة المكشوفة التي تتقدم الجامع ١٢٦١ - ١٢٦٥هـ / ١٨٤٥-١٨٤٨ م ومداميك جدران سبيل سليمان جاوويش من الداخل ١٠٧٢هـ / ١٦٦٢م وفى الواجهه الجنوبية لجامع تعزى بردى ١٠٤٤هـ / ١٦٣٤ م ومداخل منزل وقف الملا ١٠٦٥هـ / ١٦٥٤م.

ظاهرة زراعة صحون المساجد بالأشجار:

شاع فى معظم صحون عمائر الأندلس لاسيما صحون المساجد منذ عصر الإمارة زراعتها بالأشجار وخاصة أشجار البرتقال والنانج ولذلك كان يطلق عليها اسم patois de los naranjs وأقدم مثل لهذه الظاهرة نجدها

في صحن جامع قرطبة القديم^(١١٩) من عهد عبد الرحمن الداخل الذي طلب من صاحب الصلاة بالجامع عبدالله بن صعصعه بن سلام زراعة صحن الجامع بالأشجار عملا بمذهب الإمام الأوزعي الذي أجاز زراعة صحن المساجد ومنذ ذلك الحين أصبح تقليد متبعاً في تخطيط صحن المساجد الأندلسية على نحو ما كان موجوداً في صحن جامع المريّة وجامع وادي آش وجامع عمر بن عدبس باشبيلية وجامع القصبة بنفس المدينة وجامع مدينة مالقة وجامع البيازين بمدينة غرناطة .
وقد انتقل هذا التقليد إلى بعض عمائر مصر لاسيما في العصر الفاطمي إذ كان صحن جامع العطارين الذي شيده بدر الجمالي بمدينة الإسكندرية مزروعا بأشجار النخيل .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية

- ١-الإدريسي (الشريف محمد بن عبد العزيز):وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق. نشر الفريد ديسيه لامار مع الترجمة الفرنسية . الجزائر ١٩٤٩م.
-: صفة المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. نشر المكتبة الثقافية الدينية ببور سعيد بدون تاريخ
- ٢- الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم): صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق ليفي بروفنسال، طبعة القاهرة، ١٩٣٧م.
- ٣- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف القرطبي): قطعة خاصة بعهد الحكم المستنصر، نشرها الدكتور عبد الرحمن الحجي، بيروت ١٩٨٣م.
- ٤- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد): الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٧٢م ،
- ٥-.....: اللحة البدرية في الدولة النصرية . بيروت ١٩٧٨م.
- ٦- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك محمد بن أحمد الباجي): تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق د. عبد الهادي التازي، طبعة بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧م.
- ٧- ابن عذاري (أبو عبد الله محمد المراكشي): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. نشر الأستاذان ليفي بروفنسال وج.س. كولان . الطبعة الثالثة . بيروت، دار صادر ١٩٨٣
- ٨- ابن غالب (محمد بن أيوب الأندلسي): قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، نشر وتحقيق د. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول ج ١ نوفمبر ١٩٥٥
- ٩- المقري (أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب . تحقيق د. إحسان عباس بيروت، ١٩٦٨م.

ثانياً : المراجع العربية الحديثة والمعربة

- ١- أحمد (سامي عبد الحليم): الحجر المشهر حلية معمارية بمنشآت المماليك في القاهرة، نشر دار الوفاء للطباعة والنشر . ١٩٨٤م.
- ٢- أحمد (عبد الرازق) :العمارة الإسلامية في العصرين العباسي والفاطمي. دار القاهرة للكتاب ٢٠٠٢م.
- ٣- الباشا (حسن):أثر عمارة عثمان بن عفان في المسجد الحرام في تخطيط المساجد وفي العمارة الإسلامية (ضمن دراسات في تاريخ الجزيرة العربية. الكتاب الثالث الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين). ج ٢ الرياض ١٩٨٩م
- ٤- بالباس (ليوبولد توريس) :الفن المرابطي والموحدي، ترجمة سيد غازي، دار المعارف بمصر ١٩٧١
- ٦- الحداد (محمد حمزة إسماعيل):المجمل في الآثار والحضارة الإسلامية. مكتبة زهراء الشرق. القاهرة. ٢٠٠٤م.
- ٧- زكي (عبد الرحمن): القاهرة تاريخها وآثارها (٩٦٩-١٨١٥م) من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، ١٩٦٦
- ٨- سالم (.السيد عبد العزيز) : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية عمرانية أثرية في العصر الإسلامي. مؤسسة شباب الجامعة. إسكندرية ١٩٧٠م.
- ٩-.....:المغرب الكبير، الجزء الثاني، العصر الإسلامي الإسكندرية ١٩٦٦م.
- ١٠-.....: بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الإسلامية. مجلة المجلة. سبتمبر ١٩٥٧م.
- ١١-.....: التأثيرات المتبادلة بين مصر والمغرب الإسلامي في مجال فنون العمارة والزخرفة (مقال ضمن موسوعة بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار.) القسم الثاني. الطبعة الأولى. دار الغرب الإسلامي ١٩٩٢
- ١٢-.....: العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها. عالم الفكر. العدد الأول. المجلد الثامن. إبريل، مايو، يونيو، الكويت ١٩٧٧م

- ١٣-.....، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، الإسكندرية، ١٩٨٥م.
- ١٤-.....، المساجد والقصور في الأندلس، سلسلة أقرأ، عدد ١٩٥، دار المعارف ١٩٥٨م
- ١٥- شافعي (فريد): العمارة العربية في مصر في عصر الولاة. المجلد الأول. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. ١٩٧٠م
- ١٦- عبد الحميد (سعد زغلول): العمارة والفنون في دولة الإسلام. منشأة المعارف. إسكندرية ١٩٨٦م
- ١٧- عثمان (محمد عبد الستار): الإعلان بأحكام البنيان. لابن الرامي. دراسة أثرية معمارية. نشر دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية ١٩٨٩م
- ١٨- علام (نعمت إسماعيل): فنون الشرق الأوسط الطبعة السادسة. دار المعارف ١٩٨٩م
- ١٩- غالب (عبد الرحيم): موسوعة العمارة الإسلامية. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٨٨م.
- ٢٠-فكري (أحمد): المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها. ج ١، نشر دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.
- ٢١-.....: مساجد القاهرة ومدارسها.(العصر الفاطمي)، دار المعارف، القاهرة. ١٩٦٥م.
- ٢٢- الكحلوي (محمد محمد مرسي): مساجد المغرب والأندلس في عصر الموحدين، القاهرة ١٩٩٩
- ٢٦- مرزوق (محمد عبد العزيز): الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس. دار صادر. بيروت. بدون تاريخ.
- ٢٣- مورينو(جوميث): الفن الإسلامي في إسبانيا. ترجمة د. لطفي عبد البديع، د. السيد عبد العزيز سالم ومراجعة د.جمال محمد محرز. نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٨م
- ثالثا : الرسائل غير المنشورة**
- ١- كمال عناني إسماعيل: العمارة الإسلامية في طليطلة في العصر الإسلامي. مخطوط رسالة ماجستير إسكندرية ١٩٨٩م .
- ٢- حنان عبد الفتاح مطاوع : الزخارف المحفورة على الرخام والحجر في عصر الدولة الأموية بالأندلس وعصر الطوائف . مخطوط رسالة ماجستير . إسكندرية ١٩٩٩

- 1- Camps y Cazorla (E) : Modulos Proporciones y composicion en la Arquitectura Califal Cordobesa , Madrid , 1953
- 2- De Morales (Ambrosio): Las antiguidades de las Ciudades de Espana, Madrid 1792
- 3- Ewert (Chirstian): Die Moschee am Bab AL-Mardum in Toledo Elmi Kaopie Der Moschee.Vou cordoba heidbery.1944
- 4- Godard (A):voutes iraniennes en Athare e Iran , iv , 1949
- 5- Golvin (Lucien): Essi sur L'Architecture Religieuse Musulman , tome , 4 , Editions Klincksieck , Paris , 1979
- 6- Grube (E.J): The World of Islam , London, 1967
- 7- -Jimenez (Felix Hernandez): La Techumbre de La Gran Mezquita de cordoba en Archivo Espanol de Arte y arqueologia , t , xii , 1928
- 8-: El-Alminbar movil del siglo x de la Mezquita de Cordoba , Alandalus , vol , xxiv , 1959
- 9- Jimenez (ocana): la inscripcion Fundacional de la Mezquita de Bib Mardom , Al Andulas , v , xxv , 1949
- 10- Lambert (Elie): Les Mosques de Type andalou en Espange et en Afrique du Nord , Al -Andalaus Vol, XIV , 1944
- 11-: Les Coupoles des Grandes Mosques de Tunisie et de L'Espange au 1xe et xe Siecles , Hesperis , t , xxii. Fasc , 2 , 1936
- 12-:L' Architecture Musulmane du Xe Siecle a Cordoue et a Toleda , Gazette de Beaux arts , t , XII. 1925

- 13-: Les voutes nervees Hispano Musulmanes du XI e, siecle et leur influence possible sur l'art Chretien Hesperis , 1928
- 14- Maldonado (Basilio Pavon): La Mazquita Mayor de Tudela. Pamplona. 1945
- 15-: Memoria de la excavacions de la Mezquita de Medinat Al-Zahra , Madrid , 1966
- 16- .Marçais (G): Manuel d'art Musulman , Paris , 1926
- 17- Monnert De Villard (u) : Le Chiese della Mesopotamia , Roma , 1940
- 18- Porres (Julio): La Mezquita Toledana de Solorejco LLamado de Los Tornerias ,Alqntara , Revista de Estudios Arabes , Vol , III , 1982
- 19- Salem (AL-Sayyid Abdel Aziz): cronologia de la Mezquita Mayor de Cordoba le vantada por Abd Al Rahman I , Alandulas , vol , xix , 1954
- 20- .Sedano (M del Pilar Sanchez): inventrio de Arquitectura a Musulmana en la provencia de Almeria , Boletin del Instituto de Estudios ,Almerienses, (N.5 Almeria , 1985
- 21- -.Terrasse (Henri): l'art Hispano Mauresque des origines au xiii . e siècle , paris , 1932
- 22-: Les Influences ifriqiyennes sur l'art de l'Espange musulmane aux, x, et, xi, siècles en Revue Tunisienne ,Tunez , 1933
- 23- Torres.Balbas (Leopoldo): Arte Hispano Musulmana hasta La Caida del Califato de Cordoba,en Historia de Espana,.dirigida porDon Menendez Pidal ,T, V, Madrid, 1957.
- 24-: Bovedas Romanas sobre arcos de resalto en A.E. Arqr , xix , 1946.

- 25- Ars Hispaniae, arte Almoahad, arte Nasri. , art Mudejar , Madrid, 1949.
- 26-: Las Bovedas Agallondas de la Al Hembra , Al andulas , vol , ii , 1934.
- 27-: Los Motivos ornamentales de la Al- Jaferia, Alandalus , v , ix , 1994
- 28- Viollet (H): Description du Palais d' Al-Moutassim Fils d, Harun aL-Raschid a Samara , en memoires des l'Academie des inscriptions , iii , Paris , 1913